تشومسكي

د. مازن الوعر
جامعة دمشق ــ سوريا

مدخل

(تشومسكي) هو عنوان الكتاب الذي ألّفه الباحث اللساني البريطاني جان ليونز عام 1970 وترجمه إلى العربية الدكتور محمد زياد كبّه، ونشره النادي الأدبي بالرياض عام 1987.

يطرح الكتاب أبعاداً عديدة : لسانية وفلسفية ونفسية ورياضية تدور كلها حول محور واحد ألا وهو اللغة. فماهي اللغة ؟ ولماذا وجدت ؟ وكيف وجدت ؟ ماعلاقتها بالدماغ البشري ؟ وكيف يتم عملها فيه ؟ ثم ماهي الوظائف التي تقوم بها ؟ وبعبارة دقيقة، كيف يمكننا معرفة ما نعرف حول اللغة وبنيتها صوتاً وتركيباً ودلالةً ؟

سأحاول في هذا البحث الاجابة عن هذه الأسئلة طبقاً لرأي تشومسكي وذلك من خلال العناوين الرئيسية المطروحة في هذا الكتاب.

ولكن قبل الاجابة عن هذه الأسئلة ينبغي أن نبيّن الأسباب التي دفعت الباحث المترجم لأن ينقل هذا الكتاب إلى العربية ذلك لأنها أسباب منطقية ومهمة.

ففي رأيه أن اللسانيات الحديثة اتخذت في السنوات الماضية طابعاً خاصاً جعلها تنتشر على نطاق واسع في الجامعات العالمية وهكذا فإنه من المفيد للقارىء العربي أن يعرف أهم التطورات اللسانية في هذا العلم الحديث وأن يكون على معرفة باللساني الأمريكي نوم تشومسكي الذي يذكر اسمه كلما ذكرت اللسانيات.

وقد تعرض المترجم الباحث إلى الصعوبات التي واجهته أثناء ترجمة هذا الكتاب ومنها قضية المعجم العربي الذي لا يزال يفتقر إلى الترجمة الدقيقة لكثير من المصطلحات اللسانية الحديثة. لذلك فقد استبدل المترجم بالأمثلة الانكليزية التي وردت في هذا الكتاب أمثلة عربية ملائمة بقصد الايضاح، واستبدل أيضاً بالقواعد اللغوية اللاتينية مجموعة أخرى تلائم اللغة العربية.

وأخيراً يعلل الأسباب التي جعلته يترجم مثل هذا الكتاب. ففي رأيه ــ كما هو الأمر في رأي

تشومسكي ــ أن جميع اللغات متماثلة في جوهرها. وبناءً على ذلك فإن الاختلاف في البنية السطحية لا يؤثر في جوهر النظرية. أضف إلى ذلك أن المترجم لا يهدف إلى أن يضع بين يدي القارىء العربي ما يشير إلى ما وصل إليه النحو العربي من التطور منذ قرون عديدة وهو المستوى الذي تحاول النظرية النحوية الحديثة في الغرب أن تدركه. فالنحاة العرب أدخلوا الفكرة التحويلية والتوليدية في صلب قواعد اللغة العربية. وما قواعد الحذف والاضافة والتقديم والتأخير ومفهوم (التقدير) في الاعراب إلاّ جزء من القواعد التحويلية الموجودة في صميم اللغة العربية. وفي رأي المترجم أن تشومسكي أخذ مبادىء نحوه التحويلي عن العربية من خلال اللغة العربية التي قدم رسالته لنيل درجة الماجستير فيها. ومن المعروف أن للنحو العربي أثراً بالغاً في النحو العبري.

ولكن تشومسكي أضاف بلاشك الصيغة الرياضية على النحو وصاغه بطريقة حديثة مستفيداً من خبرته في الرياضيات والعلوم الحديثة.

1 ــ نبذة عن حياة تشومسكي

ولد تشومسكي في مدينة فيلادلفيا بولاية بنسلفانيا في السابع من كانون الأول عام 1928، وتلقى تعليمه الأول في مدرسة (أوك لين) ثم في المدرسة المركزية العالية في فيلادلفيا. وبعد ذلك التحق بجامعة بنسلفانيا حيث درس اللسانيات والرياضيات والفلسفة. نال تشومسكي درجة الدكتوراه من جامعة بنسلفانيا رغم أنه أجرى معظم بحثه الذي نال بموجبه درجة الدكتوراه في جامعة هارفرد عندما كان عضواً في جمعية الزمالة فيها. ومنذ عام 1955 مارس تشومسكي مهنة التدريس في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا حيث يحتل الآن مرتبة الأستاذية في اللسانيات. وتشومسكي متزوج وله ابنتان وولد.

حظيت أعمال تشومسكي بالتقدير في الدوائر الأكاديمية فمُنِح درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة شيكاغو ومن جامعة لويولا في شيكاغو ومن جامعة لندن. كما دُعِيَ لالقاء المحاضرات في عدد من البلدان. ففي عام 1967 ألقى تشومسكي (محاضرات بيكمان) في جامعة كاليفورنيا في بيركلي، في عام 1969 ألقى محاضرات (جان لوك) في جامعة أكسفورد، ومحاضرات (ذكرى شيرمان) في جامعة لندن.

وقد حقق تشومسكي أول شهرته في ميدان اللسانيات حيث تعلّم قسطاً من مبادىء اللسانيات التاريخية من والده الذي كان عالماً في العبرية. إلاّ أن العمل الذي يُشتهر به الآن، وهو بناء نظام النحو التوليدي، تطور من خلال اهتمامه بالمنطق الحديث وبأسس الرياضيات، حيث طبقها فيما بعد على وصف اللغات الطبيعية. ولقد كان للعالم زيلك هاريس، وهو أستاذ اللسانيات في جامعة بنسلفانيا أهمية كبيرة في تطور تشومسكي الفكري. وذكر تشومسكي نفسه أن تعاطفه مع آراء هاريس السياسية كان الدافع الحقيقي وراء التحاقه بدراسة اللسانيات في بداية مرحلة دراسته الجامعية. ومن هنا نبيّن كيف أن السياسة هي التي أدت به إلى اللسانيات. وقد أبدى تشومسكي اهتمامه بالسياسة منذ نعومة أظفاره. ومنذ عام 1965 أصبح من أبرز المعارضين لسياسة أمريكا الخارجية، كما أن مجموعة مقالاته المنشورة في كتاب (القوة الأمريكية والمنادرين الجديد) والذي كتب إهداءه (إلى الشبان الشجعان الذين رفضوا الخدمة في حرب إجرامية) تعتبر لدى الكثيرين إحدى أقوى الادانات للتورط الأمريكي في فيتنام التي ظهرت حتى الآن.

2 ــ مقدمة المؤلف

يذكر المؤلف هنا أن تشومسكي لعب في

ميدان اللسانيات الحديثة دوراً مهماً في تاريخ هذا العلم، ولا سيما في كتابه الأول (البنى النحوية) (Syntactic structures) الذي صدر عام 1957. فقد أحدث هذا الكتاب ثورة علمية. هذه الثورة تُعَدّ اليوم من أرسخ الثورات اللغوية وأبعدها أثراً.

ولم تكن شهرة تشومسكي بين علماء اللسانيات هي التي جعلت منه واحداً من أعلام الفكر الحديث، فاللسانيات ليست سوى موضوع مغلق لايكاد يعرفه سوى صفوة من الناس، ولكنها انقلبت في يومنا هذا إلى واحد من فروع دوحة العلوم جدير بالبحث ليس في حد ذاته وحسب، وإنما مرده بالمقام الأول إلى تشومسكي. ذلك لأن للغة أهمية بالغة في كل منحى من مناحي الحياة. يقول تشومسكي في هذا المجال :

«إن المبادىء العامة التي تتحكم بشكل القواعد النحوية في لغة كالانكليزية أو التركية أو الصينية هي إلى حد كبير مبادىء مشتركة بين جميع اللغات الانسانية. ويُعتقد أن المبادىء التي تقف وراء بنية اللغة منتظمة ودقيقة إلى درجة يمكن معها اعتبارها محددة بيولوجياً تنتقل وراثياً من الآباء إلى الأبناء».

وحسب رأي المؤلف فإن أعمال تشومسكي تكتسب أهميتها بالدرجة الأولى من أهمية اللغة في جميع أوجه النشاط الانساني وكذلك من العلاقة التي يقال إنها قائمة بين بنية اللغة من جهة وبين الخصائص أو العمليات الكامنة في العقل البشري من جهة ثانية. ولم يحظ تشومسكي بشهرته الواسعة بسبب أبحاثه في حقل اللسانيات وحدها، إذ اشتُهر منذ عهد قريب بأنه أحد المعارضين البارزين للسياسة الأمريكية في فيتنام. فهو بطل اليسار الجديد حيث رفض أن يدفع نصف الضرائب المترتبة عليه معرضاً بذلك نفسه لعقوبة السجن. كما آزر وشجّع الشباب الذين رفضوا تأدية الخدمة العسكرية في فيتنام.

ويعتقد المؤلف أنه على الرغم من أن آراء تشومسكي في اللغة هي محور هذا الكتاب إلاّ أن نظريته اللغوية وفلسفته السياسية وثيقتا الصلة على عكس ما قد يتبادر إلى الذهن في الوهلة الأولى. فقد عارض منذ أمد طويل علم النفس المتطرف القائم على المذهب السلوكي الراديكالي الذي يدعي أن جميع أشكال المعرفة والمعتقدات الانسانية وكل نماذج الفكر والنشاط التي تميز الانسان يمكن أن تُفسَّر باعتبارها مجموعة من العادات تُكتسَب عن طريق التأقلم.

وفي الوقت الحالي يوجه تشومسكي التهمة نفسها في كتاباته السياسية إلى علماء الاجتماع والنفس وغيرهم ممن تطلب الحكومة منهم تقديم الخبرة والمشورة فيقومون بمحاولات يائسة لمحاكاة القشور السطحية للعلوم التي هي فعلاً ذات مضمون فكري ذي أهمية، مهملين في محاولاتهم تلك جميع المشكلات الأساسية التي كان عليهم مجابهتها وهم ينشدون الملاذ في التوافه الذرائعية والمنهجية.

وهذا الرأي نابع من احترام تشومسكي للانسان. فالانسان حسب رأيه يختلف عن الحيوان أو الآلة وأن من الواجب احترام هذا الاختلاف سواء أكان في العلوم أم في الدولة. واعتقاده هذا هو الذي يوجّه سياسته ولسانياته وفلسفته.

ولنا طبعاً ملء الحرية بتقبل آراءه ورفضها، إلاّ أنه ليس بمقدورنا أن نتجاهلها. وعلى كل من يرغب في متابعة هذه الآراء أو تقييمها أن يكون مستعداً لملاقاة تشومسكي على أرضه، ونقصد هنا ميدان اللسانيات أو البحث العلمي اللغوي.

ومما يلائم مواقف تشومسكي وتأثيره ويرمز إليهما أن المعهد الذي يجري فيه أبحاثه في بنية اللغة وخصائص العقل البشري هو معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT) الذي يعد معقلاً من معاقل العلوم الحديثة. إلاّ أن الآراء التي يعرضها في تلخيص

أبحاثه هي التي تميز فروع العلوم الانسانية في الجامعات التقليدية، لذا فإن التناقض ليس سوى تناقض سطحي، فأعمال تشومسكي تشير إلى أن الحاجز الوهمي الذي يقوم بين الفن والعلم يمكن، بل يجب، أن يهدم.

3 ـ اللسانيات الحديثة : أهداف ومواقف

يعرض المؤلف هنا لشرح مصطلح (اللسانيات) بشكل عام ومن ثم يعرض عناصر الموضوع التي تحظى بالقسط الأكبر من الأهمية في تكوين أفكار تشومسكي تعرّف اللسانيات عموماً بأنها دراسة اللغة دراسة علمية. وما نعنيه بالوصف العلمي هو الذي يتم بصورة منتظمة مبنية على الملاحظات التي يمكن توثيقها بموضوعية وفي إطار نظرية عامة تلائم المعطيات.

لقد كان البحث اللغوي في أوربا وأمريكا قبل القرن التاسع عشر ذاتياً وغير منظم ويغلب عليه طابع التخمين. لقد كان هذا الانفصام المتعمّد عن الماضي أكثر حدة ووضوحاً في أمريكا منه في أوربا، إذ لم يُرفض النحو التقليدي في أي مكان بحماسة تشبه تلك التي رفضته بها مدرسة بلومفيلد (Bloomfield) اللغوية التي ازدهرت في الولايات المتحدة خلال السنوات ما بعد الحرب الثانية، وهي المدرسة التي تعلم فيها تشومسكي ومن ثم ثار عليها عندما حان الوقت.

ويذكر المؤلف في هذا الفصل بعض الخصائص التي تميز (اللسانيات الحديثة) عن النحو التقليدي وهي التالية :

(1) الاستقلالية عن العلوم الأخرى :

وهذه الصفة نتيجة مباشرة للصفة العلمية التي تحملها اللسانيات. فقد ارتبط النحو التقليدي بالفلسفة والنقد الأدبي منذ بدء ظهوره في القرن الخامس قبل الميلاد. وقد ساهم هذان الحقلان في تكوين المواقف والأسس التي تبناها العلماء في دراسة اللغة طيلة قرون عديدة. ومما يجدر ذكره هنا أن هذه المواقف والأسس لا تزال حتى الآن واسعة الانتشار وراسخة في ثقافتنا لدرجة أنها تعتبر من المسلمات. وعندما يطالب الباحث اللساني باستقلال موضوعه فإنما يطلب السماح له بتبني نظرة جديدة موضوعية من اللغة دون أي التزام مسبق بالأفكار التقليدية ودون أن يتبني وجهات نظر الفلاسفة أو النقاد أوعلماء النفس أو من يمثلون العلوم الأخرى. وطبيعي ألاّ ينفي هذا قيام العلاقة بين اللسانيات وباقي العلوم التي تهتم باللغة. ولقد حدث هذا التقارب نتيجة التطوير المستقل للسانيات التي كانت بمثابة الحافز لاقامة التحالف بين العلوم الثلاثة.

(2) الاهتمام بأسبقية اللغة المنطوقة على اللغة المكتوبة :

لقد سبق أن أشرنا إلى ارتباط النحو التقليدي بالأدب، وهذا قاد الباحثين إلى أن يركزوا جل اهتماماتهم على اللغة المكتوبة وأهملوا الفوارق بين الكتابة والكلام. كما اعتبر النحويون التقليديون الكلام نسخة مشوهة عن الكتابة في الغالب، مع أنهم لم يهملوه إهمالاً كاملاً. وعلى النقيض من المعياريين فإن اللسانيين الحديثين يأخذون بالمسلمة القائلة أن الكلام يتبوأ المكانة الأولى، أما الكتابة فتحتل المكان الثاني لأنها مشتقة منه، أضف إلى ذلك أن اللغات المعروفة بادىء ذي بدء لم تكن سوى كلام منطوق، بل إن آلافاً من لغات العالم لم تعرف خط طريقها للتدوين، أو أنها دوِّنت منذ فترة قريبة جداً. ثم إن الأطفال يتقنون الكلام قبل تعلمهم الكتابة.

ويؤكد المؤلف هنا أن تبني مبدأ أسبقية الكلام على الكتابة لايعني بتاتاً إهمال لغة الكتابة أو الاخلال من شأنها.

(3) الاهتمام باللغة المعيارية واللغة غير المعيارية :

لقد انحصر اهتمام النحويين التقليديين بشكل شبه تام في دراسة اللغة الأدبية الكلاسيكية (المعيارية) وكانوا يحتقرون اللغة العامية (غير المعيارية) باعتبارها غير صحيحة سواء في الكلام أم الكتابة، فقد غاب عن أذهانهم أن ما يسمونه لغة أدبية (معيارية) هو من جهة النظر التاريخية ليس إلاّ لهجة محلية أو اجتماعية معينة (غير معيارية) اكتسبت مكانة مرموقة ثم ارتبطت بالسياسة والثقافة والأدب. فالفرق بين اللهجة واللغة غالباً ما يبنى على أسس سياسية.

وهكذا فإن الاختلاف بين اللغات النرويجية والدانماركية والسويدية (وتعتبر جميعها لغات مستقلة) أقل بكثير عما نجده بين العديد مما يعتبر لهجات متفرعة عن اللغة الصينية.

ويبدو أن هذه النقطة جديرة بالتركيز إذ يميل كثير من الناس نحو الاعتقاد بأن اللغة الكلاسيكية التي تُدرّس في المدارس هي التي تشكل موضوع الوصف العلمي، أما من وجهة النظر اللغوية البحتة فإن جميع اللهجات (في لغة من اللغات) جديرة بالدراسة والبحث على قدم المساواة.

(4) النظرية اللسانية أكثر شمولاً ودقة :

لقد طُور النحو التقليدي وفق الأسس اللاتينية واليونانية وجرى تطبيقه فيما بعد وبتعديل طفيف على وصف عدد كبير من اللغات الأخرى. ولكن ثمة لغات كثيرة تختلف اختلافاً شاسعاً، في بعض عناصرها على الأقل، عن بنية اللاتينية واليونانية واللغات المألوفة الأخرى في أوربا وآسيا، ولهذا فإن من أهداف اللسانيات الحديثة إيجاد نظرية أكثر شمولاً من النظرية التقليدية بحيث تلائم وصف جميع اللغات الانسانية دون انحياز لتلك اللغات التي تشبه في تركيبها اليونانية أو اللاتينية.

ويجب أن ننوه في هذا المجال بأن اللسانيات لا تؤيد من يعتقد بوجود اختلاف جوهري بين اللغات المتحضرة واللغات البدائية غير أن مفردات كل لغة تعكس دون شك مرافق الحياة لدى المجتمع الذي ينطق بها. وهكذا لا يمكن الحكم على أية لغة بأنها فقيرة أو غنية بالمفردات بالمقارنة مع أية لغة أخرى بالمعنى المطلق. فلكل لغة ما يسد حاجتها من أجل التعبير عن الأشياء المتميزة في المجتمع الذي ينطق بها. فاللغات المسماة بالبدائية لا تقل انتظاماً عن لغات الشعوب المتقدمة كما أن بنيتها لا تزيد تعقيداً أو بساطة عن تلك اللغات. فكل المجتمعات الانسانية المعروفة تتكلم لغات ذات درجة واحدة من التعقيد نسبياً. أما الفروق النحوية التي نجدها بين اللغات المنتشرة في أنحاء العالم فلا يمكن ربطها بالتطور الحضاري للشعوب التي تتكلم بها.

وبعد ذلك يشرح المؤلف أهم الخصائص التي تسم اللغات البشرية.

وفي رأيه هناك خاصتان مهمتان تتميز بهما اللغات البشرية :

ـــ الميزة الأولى وتدعى بخاصية ثنائية البنية (duality structure) حيث أن لكل لغة مستويين من التركيب :

(1) المستوى الأساسي أو المستوى النحوي (Syntactic level) وفيه تتمثل اللغة بمجموعة مركبة من الوحدات (الكلمات) ذات الدلالة.

(2) والمستوى الثانوي أو المستوى الصوتي (phonological level) وفيه تتمثل الجمل بمجموعة من الوحدات الصوتية (فونيمات) ليست بذات دلالة في حدّ ذاتها.

ويطرح المؤلف مثالاً ليدل على هذين

المستويين : فجملة (العلم مفيد) مؤلفة من كلمتين وإن أولى هاتين الوحدتين الأساسيتين (العلم) محددة بمجموعة من الوحدات الثانوية (اـ ل ـ ع ـ ل ـ م) والثانية (مفيد) محددة بمجموعة من الوحدات الثانوية (م ـ ف ـ ي ـ د).

فعلى الرغم مما سبق ذكره من أن الوحدات الأساسية تحمل قيمة دلالية على النقيض من الوحدات الثانوية، فإن الميزة الرئيسية للكلمات ليست في كونها ذات قيمة دلالية. إنه يمكن تحليل اللغة في المستوى النحوي بغض النظر عما إذا كانت الوحدات القائمة فيه ذات قيمة دلالية أم لا. فهناك بعض الكلمات على الأقل ليس لها معنى ككلمة (أن) في قولنا (أريد أن أكتب).

من هنا يتعين علينا أن نتوخى الحرص على أن لانصف ثنائية البنية كما أوردناها من وجهة نظر العلاقة بين الصوت والمعنى. وإذا سلمنا بأن لكل لغة ميزة ثنائية البنية لجاز لنا أن نتوقع أن يكون وصف قواعد أية لغة من اللغات مؤلفاً من ثلاثة أجزاء متكاملة :

(1) الجزء الذي يحدد نظام تركيب الكلمات في الجملة ويسمى النحو (Syntax)

(2) الجزء الذي يصف معاني الكلمات والجمل ويسمى علم الدلالة (Semantics)

(3) الجزء الذي يعالج الجانب الصوتي والتركيبات الصوتية المسموح بها في اللغة ويسمى علم النظام الصوتي (phonology).

وهكذا فإن مصطلح «القواعد» (Grammar) يستخدم بمعناه الشامل الذي يضم الجوانب النحوية والدلالية والصوتية معاً. وهذا هو المعنى الذي يرمي إليه تشومسكي عندما يستخدم كلمة «قواعد» في أعماله الأخيرة.

ـ الميزة الثانية وتدعى بالابداع أو ميزة النهاية المفتوحة (Creativity) ويعني المؤلف بهذه الميزة أن على الناطقين بأية لغة كانت أن يكونوا قادرين على تأليف وفهم عدد لا نهاية له من الجمل. ويجب أن نلاحظ أيضاً أن ملكة الابداع اللغوي لدى كل من ينطق بلغة الأم هي في الحالات العادية لا إرادية ولا تحتاج إلى جهد فكري. وحسبما نعلم فإن ملكة الابداع في اللغة تقتصر على الانسان دون غيره من المخلوقات. أما وسائل التخاطب الموجودة لدى باقي المخلوقات فليست لها ميزة النهاية المفتوحة هذه التي رأيناها، إذ أن أكثر تلك الوسائل «مغلقة» بمعنى أنها تسمح بإصدار عدد محدود صغير نسبياً من الرسائل المميزة ذات المعنى الثابت.

4 ـ بلومفيلد وأتباعه

يتحدث المؤلف في هذا الفصل عن مدرسة بلومفيلد (Bloomfield) حيث تلقى تشومسكي فيها تدريبه الأول في ميدان اللسانيات. فقد كانت بدايات البنيوية البلومفيلدية مرتبطة بتأثر اللسانيات في الولايات المتحدة بالحاجة الملحة إلى وصف أكبر عدد ممكن من مئات اللغات الهندية الأمريكية غير المكتوبة. فليس من الغريب في ضوء هذه المعطيات أن يركز اللغويون الأمريكيون جل اهتمامهم لتطوير ما يُعرف (بالمناهج الحقلية). أما فرانز بواس (F.Boas) الذي قدّم (كتاب اللغات الهندية الأمريكية (A Hand Book of American Indian Languages) فقد خلص إلى النتيجة القائلة أن التغير الذي نلمسه في اللغات الانسانية إنما هو في الواقع أكبر بكثير مما يبدو ظاهرياً. كما وجد أيضاً أن التشويه قد اعترى وصف اللغات المحلية والنادرة في أمريكا الشمالية بسبب اخفاق اللغويين في إدراك إمكانية تباعد اللغات وتنوعها وبسبب محاولاتهم فرض ماهو

تقليدي من عناصر الوصف القواعدي اللاتيني ــ اليوناني على لغات لا تلائمها.

ومن مجموعة الأمثلة التي قدمها بواس مثال من لغة الكواكيولت (Kawakiolt) حيث لا فرق بين صيغتي المفرد والجمع، فقولنا (هذا بيت) في تلك اللغة لا يختلف عن قولنا (هذه بيوت). كما أن لغة الأسكيمو لا تميز بين الماضي والمضارع، وبناءً على ذلك فإن قولنا (نام الطفل) مماثل لقولنا (ينام الطفل).

وقد استخدم بواس هذه الأمثلة لكي يبرهن على أن لكل لغة بنيتها النحوية المستقلة. من هنا يمكننا أن نسمّي هذه الفكرة «بنيوية» (Structural). وهذا من جملة المعاني العديدة التي اكتسبها هذا المصطلح الحديث.

ومن المتفق عليه عالمياً أن أهم علماء اللسانيات بعد بواس هما إدوارد سابير (E. Sapir) وليونارد بلومفيلد (L. Bloomfield). أما سابير فيتخذ من اللغة موقفاً أكثر إنسانية، فهو يعلق أهمية كبرى على دور الثقافة ويرجح كفة العقل على كفة الارادة والعاطفة مؤكداً على ما يدعوه بالصفة العقلانية المسيطرة للغة، وعلى حقيقة أنها ذات صفة إنسانية بحته وليست غريزية.

ويعدّ كتاب **اللغة** (Language) أكثر شمولاً وسهولة من كتاب بلومفيلد.

وقد استمر كتاب سابير في اجتذاب اهتمام اللغويين حتى يومنا هذا ولكننا من ذلك لا نجد مدرسة (سابيرية) على غرار المدرسة (البلومفيلدية) اللغوية في أمريكا.

ويخلص المؤلف بنتيجة مؤداها أن تشومسكي يحمل الآن الكثير من آراء سابير ومواقفه من اللغة رغم أن أفكار تشومسكي قد نمت وترعرعت ضمن مصطلح اللسانيات المستقلة العلمية ذلك المصطلح الذي كان بلومفيلد أول من أرسى دعائمه. والواقع لقد بذل بلومفيلد ما لم يبذله أحد غيره في سبيل منح اللسانيات ميزتي الاستقلالية والعلمية. وقد كان مفهوم العلمية والاستقلالية بالنسبة إلى بلومفيلد يعني الرفض القاطع والمتعمد لكل المعطيات غير المتطورة أو غير القابلة للقياس فيزيائياً، ثم دراسة اللغة بنفسها ولنفسها غير متأثرة بالتيارات المعرفية الأخرى.

وقد تبنى ج. واطسن (J. Watson) مؤسس المذهب السلوكي في علم النفس الموقف ذاته من أهداف العلوم ومنهجيتها. ويعتقد واطسن وأتباعه أن سلوك أي كائن حي من (الأميبا) إلى الانسان يجب أن يُفسر تبعاً لعوامل التأثير والاستجابة التي تمليها البيئة المحيطة به. وهكذا فإن الكلام ليس سوى أحد أشكال السلوك الانساني المنظور مباشرة أو الصريح، وليس التفكير سوى كلام غير مسموع. وبما أن الكلام غير المسموع يمكن أن يصبح مسموعاً إذا دعت الضرورة فإن التفكير هو من ناحية المبدأ شكل من أشكال السلوك غير المنظور.

لقد تبنى بلومفيلد المذهب السلوكي صراحة عندما شرع بإعداد كتابه **اللغة**، ويضرب بلومفيلد مثالاً ليدل على المذهب السلوكي. «بينما جاك وجيل يتمشيان في الطريق إذ بجيل ترى تفاحة على الشجرة وبما أنها جائعة فإنها تطلب من جاك أن يقطفها لها، فيتسلق جاك الشجرة ويعطيها التفاحة كي تأكلها».

إن إحساس جيل بالجوع ــ أي تقلّص بعض عضلات معدتها وإفراز بعض العصارات الخاصة في المعدة ــ ثم رؤيتها التفاحة ــ أي أن الضوء المنعكس عن التفاحة وصل إلى عينها ــ كل هذا يشكل عامل التأثير، أما الاستجابة الأكثر مباشرة لهذا التأثير فهي أن تتسلق جيل الشجرة كي تقطف التفاحة بنفسها ــ ولكنها عوضاً عن ذلك تقوم باستجابة بديلة على هيئة سلسلة من الأصوات الصادرة عن الجهاز

الصوتي وهذا يؤدي دور التأثير البديل بالنسبة إلى جاك ويجعله يتصرف كما لو كان هو الذي يحس بالجوع وقد رأى التفاحة.

والواقع لم يتطرق بلومفيلد نفسه إلى ذكر المذهب السلوكي إلاّ عند بحثه في الجوانب الدلالية، فهو يعتقد أن تحليل المعنى هو نقطة الضعف في الدراسة اللغوية ويقول إنه سيبقى كذلك إلى أن تتقدم المعرفة الانسانية أشواطاً بعيدة تفوق ما هي عليه الآن.

وإذا كان موقف بلومفيلد مثبطاً للعزائم فيما يتعلق بعلم الدلالة فإنه لم يدّع أبداً أنه من الممكن دراسة القواعد النحوية والصوتية للغة في معزل عن معاني كلماتها وجملها. إلاّ أن أتباع بلومفيلد ولا سيما زيلك هاريس غالوا أكثر منه في تجاهل الجوانب الدلالية.

والخلاصة التي يريد المؤلف أن ينتهي إليها هي أن تشومسكي نشأ وترعرع في المدرسة البنيوية وقد كان أحد تلامذة هاريس ومن مساعديه وزملائه فيما بعد كما أن ما نشره تشومسكي في البداية كان يماثل في جوهره أعمال هاريس.

ولكن ما أن حلّ عام 1957 حتى نشر تشومسكي كتابه الأول **البنى النحوية**، وكان في تلك الأثناء قد تخلى عن الموقف الذي تبناه هاريس وغيره من أتباع بلومفيلد حول «أساليب الاكتشاف» إلاّ أنه استمر في اعتقاده بأن النظام الصوتي والنحوي في اللغة يمكن أن يوصف — بل يجب أن يوصف — على أسس تعتمد على الشكل فقط دون أية اعتبارات دلالية. فعلم الدلالة جزء من وصف وظيفة اللغة، ولهذا فهو ثانوي وتابع للنحو، ولا يدخل في نطاق اللسانيات البحتة. ولقد زاد تشومسكي من نقده لمذهب بلومفيلد في اللسانيات باضطراد كما تخلى عن كثير من الأفكار التي كان قد تبناها من قبل.

ومن هنا ينبغي أن نؤكد أن تشومسكي لم يبْن اراءه الأولى وفق مدرسة بلومفيلد فحسب، بل إنه ما كان ليستطيع أن يحقق ما حققه من تقدم في اللسانيات ما لم يقم علماء أفذاذ مثل بلومفيلد وهاريس وغيرهما بتمهيد الطريق أمامه.

5 — أهداف النظرية اللسانية

يتحدث المؤلف هنا عن الدوافع والفرضيات المنهجية التي تشكل خلفية أعمال تشومسكي، ويركز بالدرجة الأولى على كتاب **البنى النحوية** الذي نشره تشومسكي عام 1957 ذلك الكتاب الذي يعتبر فاتحة عصر بأكمله. ويختار المؤلف الفصل السادس من هذا الكتاب ليكون موضوع هذا الفصل.

وطبقاً لرأي المؤلف فإن معظم الآراء التي طرحها تشومسكي هنا كانت مماثلة لآراء بلومفيلد وآراء زيلك هاريس. لكن ثمة نقاطاً ميزت حتى بواكير أعمال تشومسكي عن أعمال هاريس وغيره من البلومفيلديين.

النقطة الأولى من هذه النقاط أن تشومسكي يؤكد ميزة «الابداعية» (Creativity) أو النهاية المفتوحة في اللغات الانسانية. الواقع إن هذه النقطة تعتبر من المسلمات، وقد أهملها البلومفيلديون، ويرجع السبب في هذا إلى أن البلومفيلديين، شأنهم شأن العديد من المدارس اللغوية في القرن العشرين، كانوا منتبهين إلى الحاجة للتمييز بوضوح بين القواعد الوصفية (descriptive) وبين القواعد الوضعية أو المعيارية (Perscriptive) بين وصف القواعد التي يطبقها المتكلم فعلاً وبين وصف تلك القواعد التي يجب عليه — حسب رأي النحاة — أن يتبعها كي يكون كلامه صحيحاً نحوياً. وهناك الكثير من القواعد الوضعية التي أرسى النحويون جذورها دون أن يكون لها أساس عند المتحدثين باللغة.

وهكذا فإن تشومسكي يؤكد من وجهة نظر الميزة الابداعية أن الغالبية العظمى من الجمل في أي نص مدون هي جمل جديدة، بمعنى أنها ترد مرة واحدة ومرة واحدة فقط، وأن هذا يبقى صحيحاً مهما طال تسجيلنا لما ينطق به المتكلم. وتتألف أية لغة طبيعية من عدد لاحصر له من الجمل التي لم ولن يستخدم سوى جزء يسير منها. وحسب تعبير تشومسكي فإن القواعد تولّد (generate) جميع الجمل في اللغة ولا تميز بين ماثبت منها وما لم يتم اثباته. ويؤكد تشومسكي في أعماله التي تلت **البنى النحوية** أن الجمل التي ينطق بها المتكلم قد لا تكون سليمة نحوياً لأسباب عديدة لا تدخل في نطاق اللسانيات بل تتعلق بعوامل أخرى مثل ضعف الذاكرة أو عدم الانتباه، وقد تعود أيضاً إلى خلل في العمليات النفسية التي تتحكم بالكلام وتسيطر عليه. وإذا سلمنا بصحة هذا النقاش فإن اللغوي لا يستطيع أن يأخذ الجمل التي تصدر عن المتكلم كما هي ويعاملها على أنها جزء من اللغة التي تولدها القواعد النحوية، بل عليه أن يرقى بهذه الجمل إلى مرتبة المثالية وأن يجعلها أقرب إلى الكمال مستبعداً كل جملة يعتبرها المتكلم غير سليمة نحوياً وذلك بفضل ما أوتي من مقدرة لغوية.

من هنا نتبيّن أن تشومسكي محق في مطالبته بمنح اللسانيات ـــ باعتبارها علماً قائماً بذاته ـــ الحق باستبعاد بعض المعلومات الخام كما هي الحال في العلوم الأخرى المألوفة.

أما النقطة الثانية التي تتميز بها أعمال تشومسكي الجديدة وموقفه من أهداف اللسانيات الحديثة فتتعلق بالدور الذي يوكله إلى ما يسميه **بالحدس** (intuition) أو المقدرة على الحكم اللغوي عند المتكلم، كما أنه يعتبر قدرة ما طوّره من أشكال النحو على تفسير الحدس اللغوي عند المتكلم نقطة ايجابية تتناول التمييز بين مجموعة من الجمل المترادفة في المعنى أو الجمل ذات اللبس اللغوي أي الجمل التي تحمّل أكثر من تفسير واحد.

أما النقطة الثالثة الهامة التي عرضها تشومسكي في **البنى النحوية** هي أن المنحى الأسلوبي العملي الذي استعمله البلومفيلديون غير ضروري مطلقاً بل إنه في الواقع لايخلو من الأضرار. ومن هنا ينبغي علينا ألاّ ننظر إلى النظرية اللغوية على أنها كتاب يجمع عدداً من أساليب الاكتشاف المفيدة.

المهم أن نصل إلى نتيجة ونبررها دون الرجوع إلى الأساليب التي استخدمت في التوصل إليها. وكما يقال إن العبرة في النتائج.

ويناقش تشومسكي احتمال تشكيل مجموعة من المعايير يمكن على ضوئها البت في مدى سلامة صيغة نحوية معينة وتفضيلها على سواها من الصيغ بهدف وصف المعطيات اللغوية. ويعتقد تشومسكي أن هذا الهدف من أهداف النظرية اللغوية في حد ذاته (وهو أسلوب انتقاء نحو ما دون غيره من صنوف النحو المتوفرة من أجل لغة معينة) يعتبر طموحاً مفرطاً. وأكثر ما نستطيع أن ننتظر من النظرية اللغوية هو أن تعطينا معياراً للتقيم يساعدنا في اختيار أحد أشكال النحو المتوفرة.

وفي رأي تشومسكي ليس ثمة فيزيائي واحد يقول إن نظرية أينشتاين النسبية مثلاً هي أفضل تفسير ممكن للمعطيات التي تعالجها، ولكنه يمكن أن يقول إنها أفضل من النظرية البديلة القائمة على فيزياء نيوتن التي حلت النسبية محلها.

ويقال أحياناً إن الأهداف التي رسمها تشومسكي للنظرية اللغوية ضمن إطار مقارنة صور النحو البديلة تخفي وراءها حقيقة هامة وهي أن في العالم كثير من اللغات التي ليس لها نحو مكتوب ولو بصورة جزئية، وإن ما من لغة من لغات العالم لها قواعد نحوية قريبة من الكمال.

وثمة نقطة رابعة هامة وهي أن طروحات تشومسكي تفوق في طموحها طروحات من سبقوه، ففي مقالة له بعنوان (نظم التحليل اللغوي) يحاول تشومسكي أن يرسم طريق التحليل اللغوي الذي تحدث عنه هاريس في كتابه **مناهج في اللسانيات البنيوية** وذلك وفق أسلوب رياضي دقيق.

إن ما ابتكره تشومسكي في اللسانيات يتمثل في الدقة الرياضية المتناهية التي توخاها في صياغة خصائص النظم البديلة في الوصف النحوي.

ويعرّف تشومسكي النحو في بداية كتابه **البنى النحوية** بأنه جهاز من نوع خاص مصمم لانتاج الجمل في اللغة. لذا يجب، أن نؤكد أن تشومسكي استخدم هذه الكلمات (مصمم ـــ انتاج ـــ...) لأن الفرع الرياضي الذي اعتمد عليه في وضع أسس النحو الذي قدمه يتضمن مثل هذه الكلمات وفق أسلوب مجرد تماماً دون تحديد أية خصائص فيزيائية لأي أنموذج فعلي يستطيع أن يجسّد المعنى المجرد لكلمة (جهاز) ومن سوء الحظ أن تشومسكي استخدم كلمة (ينتج) (Produce) مما يحمل على الاعتقاد دون شك بأن بنية اللغة النحوية توصف من وجهة نظر المتكلم وليس المستمع، إلاّ أن تشومسكي يحذر دائماً من مغبّة فهم (انتاج) الجمل في إطار النحو على أنه نفسه (انتاج) الجمل من قبل المتكلم، إذ يتوجب على النحو أن يكون محايداً بين الارسال والاستقبال. ولايستخدم تشومسكي عادة كلمة انتاج النحو للجمل بل إنه يلجأ غالباً لاستخدام كلمة توليد (generate) بدلاً عنها. وكلمة (المولد) عند تشومسكي تتضمن معنى (الواضح) مما يشير إلى أن القواعد النحوية والشروط التي يجب أن تعمل من خلالها ينبغي أن تكون دقيقة التحديد، واضحة المعالم، ويشبّه تشومسكي القواعد النحوية بالقواعد والقوانين الحسابية إذ يتحتم عليها أن تكون دقيقة التحديد شأنها شأن القواعد الحسابية.

وينبغي على النحو ـــ في اعتقاد تشومسكي ـــ أن يكون قادراً على توليد جميع الجمل في اللغة وجميعها فقط. ويبدو أن تحقيق هذا الهدف الذي حدده تشومسكي للنحو ـــ أي توليد جميع الجمل ـــ وجميعها فقط ـــ في أية لغة أمر مبالغ في الطموح إلى حد الاستحالة، ويشير تشومسكي في **البنى النحوية** إلى أنه من الأمور البدهية في فلسفة العلوم أنه إذا صيغت نظرية ما بحيث تشمل الحالات الواضحة، فإن النظرية نفسها يمكن أن تطبق في معالجة الحالات غير الواضحة. لذلك فإنه ينادي بتطبيق نفس المبدأ على اللسانيات باعتبار النحو عند تشومسكي هو نظرية علمية.

6 ـــ نماذج من النحو التوليدي

يعرض المؤلف في هذا الفصل والفصلين اللذين يليانه الجوانب التكنيكية من عمل تشومسكي وذلك من خلال عرضه لثلاثة نماذج نحوية في النظرية التوليدية الأول ويدعى «نحو المواقع المحدودة» والثاني يدعى «نحو بنية العبارات» والثالث يدعى «النحو التحويلي».

وقد توخى المؤلف أثناء شرحه لهذه النماذج الثلاثة من النحو البعد عن الشكليات كما أنه لم يفترض في القارىء أي تدريب مسبق في ميدان الرياضيات ولا حتى أية مهارة خاصة، بل اكتفى بتقديم عدد كافٍ من المصطلحات والمفاهيم كي يأخذ القارىء فكرة عن ماهية النحو التوليدي تساعده في فهم مدلوله.

1.6 ـــ نحو المواقع المحدودة

يعرض المؤلف في هذا القسم نظاماً شكلياً بسيطاً إلى أبعد الحدود، وهو أول نماذج ثلاثة وُضعت لوصف اللغة كما عرضها تشومسكي في البنى

النحوية وفي أماكن أخرى. وهو النظام الذي مالبث أن ثبت قصوره بالنسبة لتحليل اللغة الانجليزية واللغات الطبيعية الأخرى.

وقبل عرض النموذج، يقدم المؤلف عدداً من المصطلحات والمفاهيم التي تفيد القارىء. وأول هذه المفاهيم هو «اللغة» التي تعني حسب رأي تشومسكي مجموعة كامل الجمل التي يولدها ذلك النحو، ومجموعة الجمل هي من حيث المبدأ إما محدودة العدد أو لا متناهية في عددها. وإن عدد الخطوات البينة التي لها علاقة بتوليد الجمل ثابت كذلك. فإن لم تكن الخطوات ثابتة العدد فإن هذا يعني استحالة توليد الجمل بواسطة مجموعة محدودة من القواعد.

ويعرف المؤلف «العناصر النهائية» على أن لها وجوداً حقيقياً في الجملة (الكلمات على المستوى النحوي ــ الفونيمات على المستوى الصوتي). أما «العناصر المساعدة» فهي كل المصطلحات والرموز الأخرى المستعملة في صياغة القواعد النحوية.

ويطلق تشومسكي اسم «نحو المواقع المحدودة» على أبسط أنواع النحو التي تحدث عنها والتي تستطيع توليد عدد لا حصر له من الجمل من خلال عدد ثابت من القواعد المتكررة بعد تطبيقها على المفردات المحدودة. ويرتكز هذا النحو على أنه بعد انتقاء الكلمة الصالحة لأن تكون العنصر الأول في جهة اليسار (أو اليمين) من الجملة نجد أن كل انتقاء لاحق يتم بناء على ما سبقه من العناصر.

ونستطيع أن نفسر «نحو المواقع المحدودة» على أنه آلة أو جهاز يتحرك ضمن عدد ثابت من المواقع الداخلية (internal state) وهو ينتقل من نقطة البداية (initial state) إلى نقطة النهاية (final state) عند توليد الجملة. وبمجرد أن ينتج النحو كلمة من مجموعة الكلمات التي تلائم ذلك الموقع ينتقل إلى اختيار كلمة أخرى تناسب الموقع الذي يليه متبعاً الجهة المحددة. وبهذا تكون السلاسل المتولدة بهذه الطريقة سليمة نحوياً. ويولد النحو الآنف الذكر عدداً محدوداً من الجمل، ولكن يمكننا توسيعه بأن نجعل الجهاز قابلاً للدوران والعودة إلى أي موقع سابق عند أماكن محددة نختارها.

لقد أثبت تشومسكي أن رفض مثل هذا النحو كأنموذج ملائم لوصف اللغات الطبيعية قائم على اعتبارات لها صلة بالتعقيد العملي وبمعرفتنا الكامنة بالطريقة التي يجب أن تتم بها عملية وصف الظواهر النحوية المختلفة.

وقد بيّن تشومسكي عدم جدوى النحو المبني على المواقع المحدودة بإشارته إلى طرق معينة لبناء الجملة يقف عندها ذلك النحو عاجزاً عن وصفها مهما قبلنا بركاكة أسلوب التحليل وبُعده عن النطق السليم.

ولنا أن نطّلع على ما قدمه تشومسكي من براهين لدحض «نحو المواقع المحدودة» في كتابه البنى النحوية.

ولكن يرجع السبب في اهتمام تشومسكي ب «نحو المواقع المحدودة» إلى أن اللغة كانت تعتبر من وجهة النظر تلك مرتبطة بتصميم قنوات اتصالات نشيطة إبان الحرب العالمية الثانية، وهي نظرية على مستوى رفيع من الرياضيات التي قدمت نظرية المعلومات (Information Theory) إلى العديد من المجالات بعد الحرب بما في ذلك علم النفس واللسانيات.

2.6 ــ نحو بنية العبارات

أما الأنموذج الثاني الذي قدّمه تشومسكي لوصف اللغة هو «نحو بنية العبارات» (phrase structure grammar) فهو أفضل في هذا الميدان من «نحو المواقع المحدودة». إذ إنه قادر على توليد جميع

ما يولده «نحو المواقع المحدودة» لكن العكس ليس صحيحاً. فهناك مجموعات من الجمل يستطيع «نحو البنية» أن يولدها بينما يعجز «نحو المواقع» عن توليدها. إن العلاقة بين نحو البنية ونحو المواقع تكمن في أن الأول يتمتع بقوة كامنة أكبر من الثاني.

ومن ناحية أخرى تشبه فكرة بنى المكونات كما يسميها تشومسكي فكرة التحليل إلى أقواس في الرياضيات والمنطق الرمزي. إن إسهام تشومسكي في هذا المجال يتمثل في صياغته لنحو بنى المكونات من مجموعة من القواعد المولدة (Generative Rules) ومن ثم إيضاحه «نحو المواقع المحدودة» وتلافي أكثر النواقص الموجودة فيه. وربما يتساءل بعض القراء كيف يعطي هذا النظام لكل جملة بنيتها المناسبة. والجواب يتجسد من خلال أسلوب متعارف عليه يرتبط بعملية التعويض بالقيمة المناسبة. فكلما طبقنا قاعدة ما نضع أقواساً حول سلسلة العناصر التي نتجت عن ذلك. وهناك وسيلة مشابهة ومكافئة للتحليل بالأقواس المعنونة التي تُعطى لسلاسل العناصر الناتجة عن نحو «بنية العبارات» ألا وهي شكل الشجرة الموضح كما يلي :

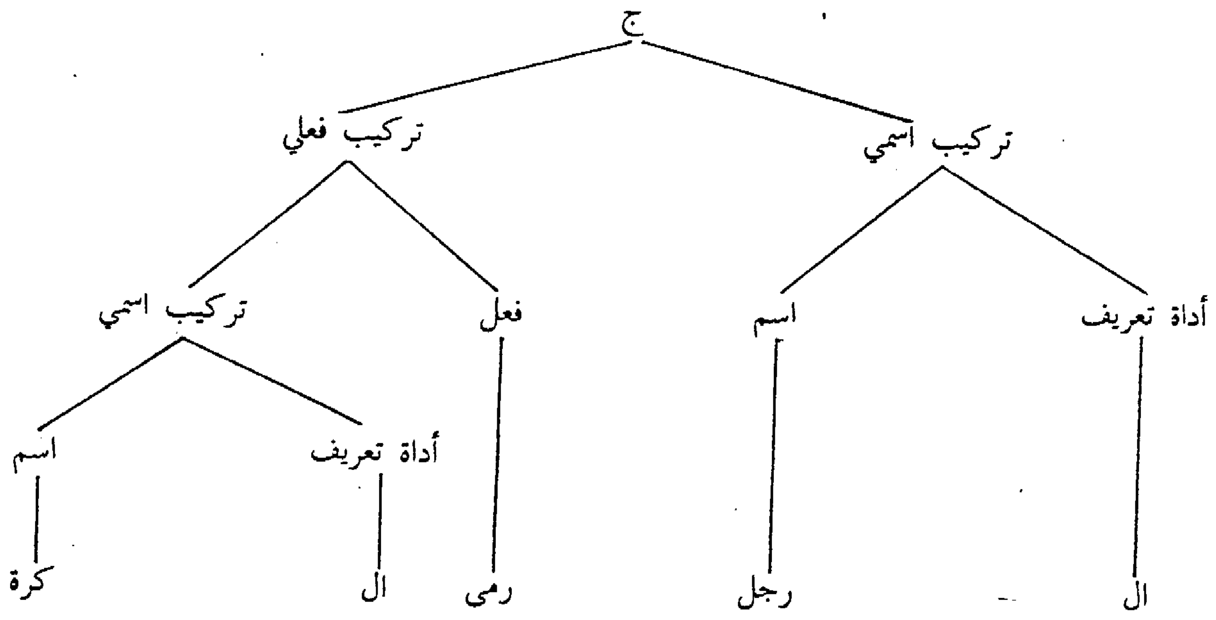

إلاّ أن السؤال هو هل يلائم نحو من هذا النوع العام من حيث المبدأ وصف جميع الجمل التي نعتبرها سليمة البنية ؟ فتشومسكي لم يكن قادراً على إثبات وجود جمل انكليزية يعجز «نحو بنية العبارات» عن توليدها (على الرغم من أنه ثبت أن هذا النوع من النحو يعجز عن توليد بعض التراكيب في لغات أخرى غير الانكليزية).

والنقطة الهامة حسب رأي المؤلف أن تشومسكي يفسح المجال أمام إمكانية تفضيل نوع معين من النحو على نوع آخر رغم أنهما متساويان، بمعنى أن كليهما يستطيع توليد نفس المجموعة من الجمل.

وفي البنى النحوية يقول تشومسكي أن من مجموعة الأسباب التي تدعونا لتفضيل «النحو

التحويلي» على «نحو بنية العبارات» هي أن الأول أكثر بساطة من الثاني إلى حد ما. وقد بدأ تشومسكي يوجه القسط الأكبر من اهتمامه إلى إثبات أن النحو التحويلي يعكس الحدس اللغوي الفطري عند المتكلم بصورة أفضل وأنه أكثر وضوحاً من «نحو بنية العبارات» من الوجهة الدلالية. ولعلنا نتبين مدى قصور «نحو العبارات» في هذه الناحية عندما نبحث في المثالين التاليين :

(1) أحمد سافر إلى دمشق

(2) سافر أحمد إلى دمشق

صحيح أننا نستطيع أن نضع عدداً من قواعد بنية العبارات تمكننا من توليد هاتين الجملتين وغيرهما أيضاً، لكن المشكلة هي أن الناطق باللغة يحسّ أن لكلتيهما نفس المعنى تقريباً، غير أن «نحو بنية العبارات» يعجز عن الربط بين المثالين السابقين (1) و(2) وعن أخذ الجانب الدلالي في الحسبان. أما النحو التحويلي فإنه يستطيع كما سوف نرى أن يصف العلاقة بين الجملتين السابقتين وأن يفسرهما.

وهذا يقودنا إلى نقطة مهمة في أعمال تشومسكي وهي أن الخصائص الشكلية والقدرة التوليدية لأنواع النحو المختلفة موجودة كفرع من الرياضيات أو المنطق وبشكل مستقل عن صلتها بوصف اللغات الطبيعية. وتتمثل الخطوة الثورة التي اتخذها تشومسكي في حقل اللسانيات باعتمادها على هذا النوع من الرياضيات (مثل نظرية التوابع المتتالية) وتطبيقه على اللغات الطبيعية.

لكن تشومسكي لم يقف عند حد الاقتباس لصيغة جاهزة ونظريات مثبتة كي يستفيد منها في اللسانيات بل ساهم بأبحاث جديدة في ميدان النظم الشكلية (Formal System) من زاوية رياضية بحتة.

وقد قطع البحث الرياضي في أنواع «نحو بنية العبارات» أشواطاً بعيدة خاصة ما يعرف منه بنحو البنى المستقل عن السياق وأنواع أخرى من النحو. إن البحوث الرياضية التي أجريت «في النحو التحويلي» لم تحقق حتى الآن سوى القليل من التقدم نسبياً. إلاّ أن «النحو التحويلي» أشد تعقيداً من «نحو بنية العبارات» رغم احتمال تمخضه عن قدر أكبر من السهولة في وصف جملة معينة على حد تعبير تشومسكي.

3.6 ــ النحو التحويلي

بيّن المؤلف في هذا الفصل النموذج النحوي الثالث ويدعى ب «النحو التحويلي» ويقارنه ب «نحو بنية العبارات». فبينما نرى أن «نحو بنية العبارات» يتألف حصراً من مجموعة من قواعد بنى العبارات فإننا نجد أن «النحو التحويلي» يضم بالاضافة إلى القواعد التحويلية مجموعة من قواعد البنى التي يعتمد على تطبيقها المسبق، وبإمكان القواعد التحويلية أن تحول سلسلة معينة من العناصر إلى سلسلة أخرى. أضف إلى ذلك أنها من الناحية الشكلية أكثر تنوعاً وتعقيداً من قواعد بنية العبارات.

إن القاعدة البنيوية تولد ما ندعوه بأساس الجملة قبل تطبيق قاعدة تحويلية. وكل تقديم وتأخير أو حذف يُعدّ اشتقاقاً من الأساس أو من البيئة التحتية (deep structure). فقاعدة البنية المذكورة تستطيع أن تولد الجملة التالية :

(1) ا. تسلم الفائز الجائزة.

ب.

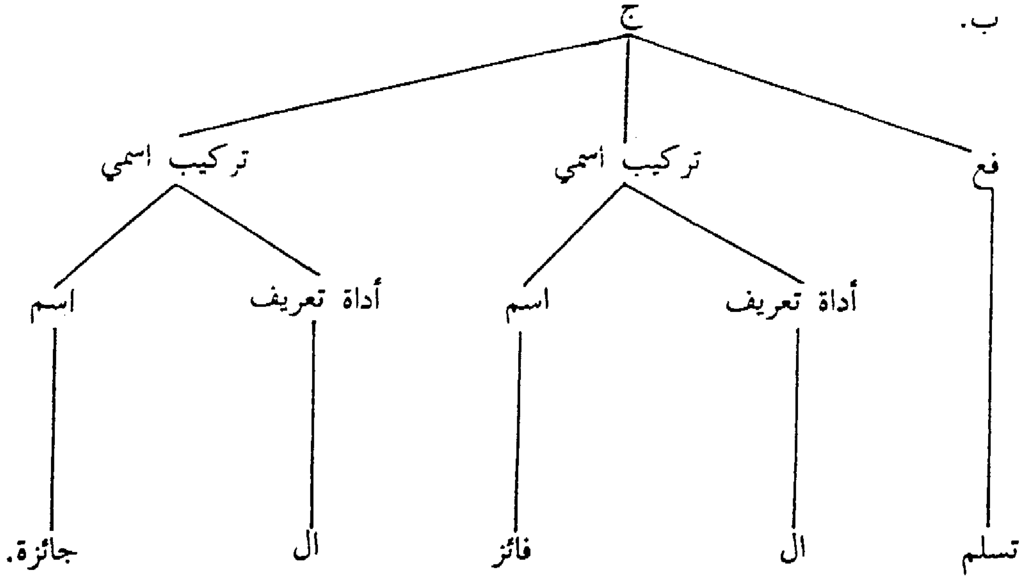

لننظر الآن إلى هاتين الجملتين المشتقتين :

(2) الفائز تسلم الجائزة

(3) الجائزة تسلمها الفائز

إن الجمل الثلاث تعتبر مترادفة في معناها بوجه عام. من هنا كان لزاماً على النحو أن يشمل وصفاً لمثل هذه الحالات وأن يصوغ لها قواعد اشتقاق ملائمة كما يفعل «النحو التحويلي» حيث يمكننا اشتقاق (2) و(3) بواسطة قاعدة تحويلية تسمى بقاعدة التبادل (Permutation) ويذكر المؤلف قواعد تحويلية عديدة منها قاعدة الاسقاط التحويلية التي تتيح لنا إعادة توليد أي تركيب اسمي في بداية الجملة ومن ثم تحول التركيب الاسمي الأصلي إلى شكل ملائم من أشكال الضمير كما هو الأمر في الجملة (2)

الجائزة تسلم الفائز ها

ويقدم المؤلف رسماً توضيحياً يبيّن فيه كيف تمت عملية بناء النحو التحويلي كما وردت في البنى النحوية :

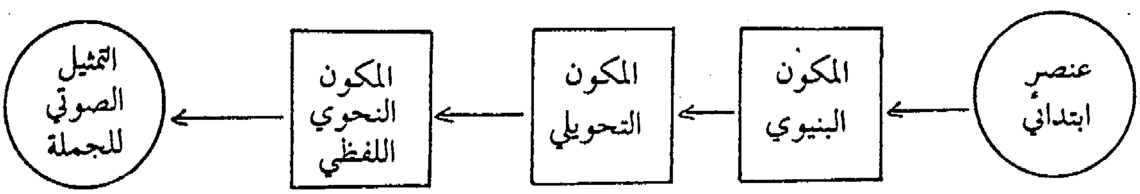

فالعنصر الابتدائي يشكل الدخل (input) إلى النحو وهو يولد مجموعة من الاشارات العميقة (deep sign) بواسطة قواعد بنية العبارات كما نرى في المستطيل الأول. أما المستطيل الثاني فنرى فيه مجموعة من القواعد التحويلية (T.Rules) بعضها إجباري وبعضها اختياري وهي تعمل على سلاسل عميقة سواء أكانت مفردة أم زوجية. وبعد أن تعدل هذه السلاسل وما يتعلق بها من واسمات العبارات تعديلاً تدريجياً فإنها تعطي النتائج المطلوبة وهي مجموعة الجمل الموجودة في اللغة دون غيرها. وتتمثل هذه بسلاسل من الكلمات والمورفيمات ولكل سلسلة منها مكونات لبنيتها المشتقة.

أما المستطيل الثالث فيحوّل الجملة من بنية نحوية (ممثلة بالكلمات والمورفيمات) إلى شكل صوتي ممثل بسلسلة من الفونيمات. وتبعاً لأنموذج النحو التوليدي التحويلي هذا فإنه يمكن تعليل أشكال شتى من الجملة البسيطة بواسطة قاعدة تحويلية اختيارية. فجميع الأمثلة الآتية ترتبط ببعضها لأنها مشتقة جميعاً من بنية تحتية (عميقة).

(1) فتح الرجل الباب.

(2) لم يفتح الرجل الباب.

(3) هل فتح الرجل الباب.

(4) ألم يفتح الرجل الباب.

(5) الرجل فتح الباب.

(6) الباب فتحه الرجل.

إن الجملة (1) لم تطبق على بنيتها العميقة أية قاعدة تحويلية اختيارية بينما نرى أن (2) هي نتيجة لقاعدة النفي وأن (3) هي نتيجة لقاعدة الاستفهام. أما (4) فهي نتيجة للقاعدتين معاً أي النفي والاستفهام. كما نرى في (5) أن قاعدة الاسقاط أو التبادل هي المسؤولة عن تقديم الفاعل المنطقي على الفعل، في حين أن نفس القاعدة ولدت (6) بتقديمها المفعول به إلى بداية الجملة ووضعها (الهاء) المتصلة بالفعل (فتح) مكان المفعول به الأصلي.

والجملة (1) دون سواها يسميها تشومسكي الجملة النواة. أما بقية الجمل فهي مشتقة من سلسلة عميقة مشتركة فيها الجملة النواة والجمل الاشتقاقية.

إن من مميزات هذا النظام وهو الأنموذج الثالث والأقوى من أساليب وصف اللغة أنه يستطيع أن يعلل أنواعاً معينة من اللبس (الغموض) البنيوي بصورة أفضل من نحو بنية العبارات، كما هو الأمر في المثال التالي :

(1) أُمِرَ رجال الشرطة بإيقاف الاحتفال بعد منتصف الليل.

فلو أمعنا النظر في هذا المثال لوجدنا أن له في الحقيقة أكثر من تفسير واحد ورغم أن القارىء يدرك لأول وهلة واحداً فقط من معانيه إلاّ أنه بمزيد من التركيز يتبيّن التفسيرات الأخرى الممكنة وهي :

(2) أُمِرَ رجال الشرطة بإيقاف (احتفال الناس) بعد منتصف الليل.

(3) أُمِرَ رجال الشرطة (بالتوقف) عن الاحتفال بعد منتصف الليل.

(4) أُمِرَ رجال الشرطة بعد منتصف الليل بأن يوقفوا الاحتفال.

(5) أُمِرَ رجال الشرطة بإيقاف الاحتفال بعد أن ينتصف الليل.

وكذلك الشأن في المثال التالي الذي له أكثر من تفسير دلالي واحد :

ـــ سمعوه من الأعلى

فهذا المثال له تفسيران اثنان هما :

ا. كان هو في الأعلى عندما سمعوه.

ب. كانوا هم في الأعلى عندما سمعوه.

وبهذا يستطيع النحو التحويلي أن يعلل حالات اللبس المماثلة بطريقة أفضل من أي نحو آخر.

وفي عام 1965 وضع تشومسكي في كتابه **عناصر النحو** نظرية أعم وأشمل في النحو التحويلي تختلف عن نظريته السابقة في عدد من النواحي الهامة. ويذكر المؤلف هنا الفوارق العريضة بين أنموذج النحو في **البنى النحوية** وما يسميه ب «نحو العناصر».

والشكل التالي يوضح النموذج المعدّل للنحو التحويلي :

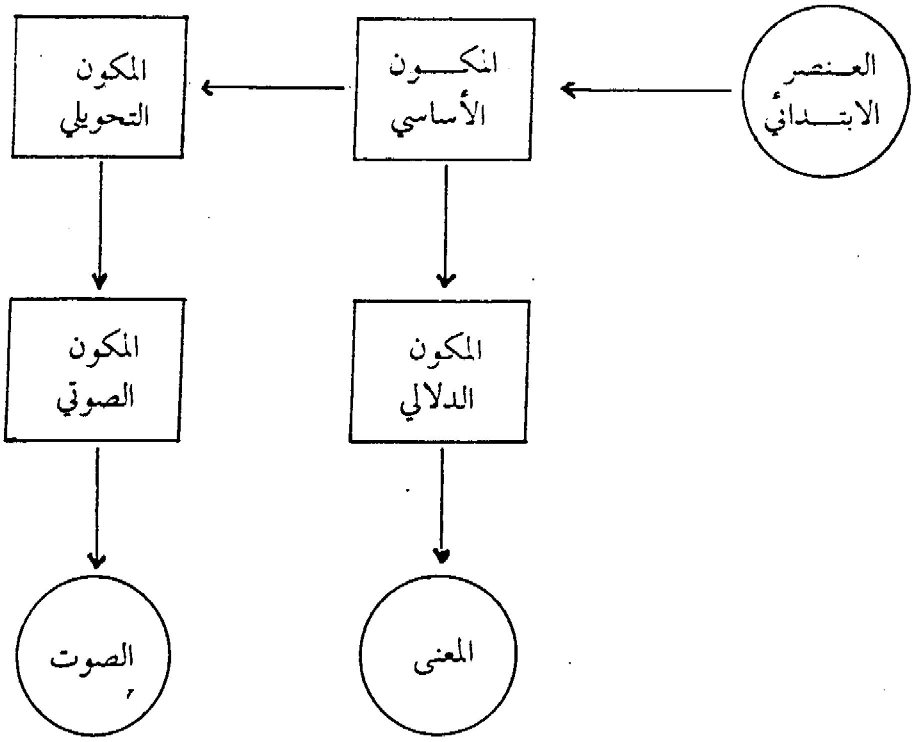

وكل ما نرغب في إضافته إلى هذا العرض لخصائص النسخة الحديثة من النحو التحويلي هو أن المفاهيم النحوية المختلفة ذات المضامين الدلالية تحدد الآن وبوضوح في ضوء العلاقات القائمة في البنية العميقة. ولنا أن نلاحظ على وجه الخصوص الفرق بين الفاعل المنطقي (البنية العميقة) والفاعل النحوي (البنية السطحية) لجملة ما كما هو الأمر في المثالين التاليين :

(1) وعدت صديقي بالعودة (أعود أنا...)

(2) أقنعت صديقي بالعودة (يعود صديقي...)

يبدو لنا أن لهذين المثالين بنية سطحية واحدة إلاّ أن لهما بنيتين عميقتين مختلفتين. ففي المثال الأول نجد أن الفاعل الحقيقي الذي يقوم بالعودة هو (أنا). بينما هو (صديقي) في المثال الثاني . وبناءً على ذلك فإن النحو التحويلي يعطي بنيتين عميقتين مختلفتين لنفس البنية السطحية للتفريق بين الفاعلين المختلفين.

وكما يقول تشومسكي : إن العلاقات في البنية

العميقة هي جوهرية من أجل الحصول على التفسير الصحيح للجملة.

7 ــ المضامين النفسية والفلسفية للنحو التحويلي.

يكرس المؤلف هنا فصلين اثنين لمناقشة آراء تشومسكي الجديدة حول المضامين النفسية والفلسفية للنحو التحويلي، ويقسم المادة إلى جزأين هما : علم النفس والفلسفة. وينوه أيضاً إلى أن هذا التمييز الذي يقيمه هو تمييز كيفي، فاللسانيات والفلسفة وعلم النفس عند تشومسكي ليست موضوعات مستقلة عن بعضها بعضاً.

1.7 ــ المضامين النفسية.

يلخص المؤلف آراء تشومسكي في هذا المجال بما يلي :

إن ميزة الابداع والتجديد هي أهم خصائص اللغة. فالطفل عندما يبلغ الخامسة أو السادسة يستطيع أن يؤلف وأن يفهم عدداً غير محدود من الجمل التي لم يتعرض لها من قبل. ونظرية التعلم السلوكية التي أتى بها علم النفس السلوكي ف. ب. سكينر في كتابه **السلوك الكلامي** مهما أصابت من النجاح في تفسير الطريقة التي تبين بموجبها بعض شبكات العادات والتداعي الفكري من خلال النماذج السلوكية عند الانسان والحيوان، إنما هي عاجزة عن تفسير ميزة الابداع، وهي عنصر من عناصر السلوك الانساني التي تكون على أشدها في ظاهرة اللغة بالاضافة إلى بعض النواحي الأخرى.

فالنحو في أية لغة كما يراه تشومسكي إنما هو وصف مثالي «للمقدرة اللغوية» التي يمتلكها من يتحدث بها. كما ينبغي على أي أنموذج نفسي يعالج الطريقة التي توضع بها تلك المقدرة موضع «الممارسة الفعلية» أن يأخذ في الحسبان عدداً من الحقائق الأخرى التي يتعمد اللغويون تجاهلها عند تعريفهم لمفهوم النحوية (grammaticality).

وتشمل الحقائق النفسية التي تتحدث عنها قصور الذاكرة وضعف الانتباه كما تشمل الزمن المطلوب لوصول الاشارات العصبية وانتقالها من الدماغ إلى العضلات المسؤولة عن الكلام وما يصحب هذا كله من تداخل بين العمليات الفيزيولوجية والنفسية. فكثير من الجمل التي يعتبرها النحاة سليمة لغوياً ليس لها وجود في الحالات الطبيعية. وهذا هو أحد الجوانب التي نلمس فيها ولأسباب نفسية تبايناً بين الكلام الفعلي والجمل التي يطلق عليها اللغويون صفة النحوية.

وثمة فرق آخر طالما أكده تشومسكي في كتاباته وهو أن الكلام الفعلي فيه كثير من الأخطاء والتشويه، منها مثلاً (سوء النطق أو التردد أو تغيير التركيب قبل انتهاء الجملة...) وهذه الأخطاء مردها إلى خلل في أداء الجهاز النفساني أو إلى قصور ذاتي فيه. وتشكل هذه الانحرافات عن النظم النحوية جزءاً قيماً من المعلومات بالنسبة لعلماء النفس، فإذا ما تم تحليلها بصورة مناسبة استدلوا منها بنية اللغة وكيفية عمل الآليات الكامنة وراء استعمالها.

ومع اختلاف وجهات النظر بين اللسانيات وعلم النفس فيما يتعلق بالأبحاث اللغوية، يصر تشومسكي على وجود روابط هامة بينهما. إن أهم ما في دراسة اللغة دراسة علمية هو ما تقدمه بالنسبة لادراكنا للعمليات الذهنية. وفي اعتقاد تشومسكي فإنه من المحتمل ــ أن يكون نوعان من النحو ملائمين من الناحية الشكلية الظاهرية وضعيفي التعادل، إذا كانا قادرين على توليد نفس المجموعة من الجمل. لكن أحدهما يصبح أكثر ملاءمة من الآخر من الناحية الوصفية إذا كان يتفق مع الحدس اللغوي الفطري للمتكلم وذلك فيما يخص قضايا اللبس

البنيوي والترادف أو الاختلاف في معنى بعض أنواع الجمل. إذ إن الحدس اللغوي الفطري (أي تمثل المتكلم لقواعد اللغة) بالنسبة لتشومسكي هو الموضوع الحقيقي للوصف وليس الجمل بحدّ ذاتها.

وقد أكد تشومسكي من قبل على مفهوم البساطة (Simplicity) باعتبارها مقياساً لتقييم أنواع النحو ضعيفة التعادل.

ويذكر المؤلف البعد اللساني والنفسي للذاكرة التي لها قدرة محدودة على الاستيعاب . فهي تعمل وفق مبدأ الحشو أي أن آخر ما يدخل يكون أول ما يؤخذ، ولذلك فإننا نتذكر بسهولة وسرعة آخر ما اختزن في ذاكرتنا. ومن المنطقي أن نفترض أن الذاكرة «بعيدة المدى ـــ أو الدائمة» تحتوي على قدر أكبر من المعلومات بما فيها القواعد النحوية التي تستخدم عند تحليل «الكلام الفعلي» أي النطق لكنّ ما يعنينا هنا هو الذاكرة «قصيرة المدى» كما يسميها علماء النفس وهي التي نستخدمها عندما نحفظ في ذاكرتنا قائمة بأشياء منفصلة عن بعضها (كمقاطع وأرقام لا معنى لها). وهناك قيود صارمة على استيعاب الذاكرة قصيرة المدى لأن عدد العناصر التي نستطيع اختزانها في الذاكرة هو من رتبة سبعة (سبعة زائد أو ناقص اثنين) كما يقول جورج ميلر عالم النفس الأمريكي.

إن كل ما سبق ذكره عبارة عن معلومات أولية لها علاقة بفرضية العمق (depth Theory) التي وضعها فيكتور اينغف. (V.Yngve).

لنتأمل المعادلات التالية :

(1) ب ← (ب) + د

(2) ب ← هـ + (ب).

(3) ب ← و + (ب) + ي

من الملاحظ أن القاعدة (1) هي متوالية يمينية، أما القاعدة (2) فهي متوالية يسارية، أم القاعدة (3) فهي ذاتية التضمين.

وحسب فرضية اينغف فإن التراكيب ذات المتواليات اليسارية تزيد من عمق الجملة أو من تعقيدها النفسي لأن التوالي نحو اليسار على عكس التوالي نحو اليمين يزيد من الفراغ الذي تحتاجه الذاكرة قصيرة المدى خلال تحليل الجملة. فإذا زاد عمق الجملة عن الحد الحرج عندئذ تصبح استمراريتها متعذرة على الفهم.

هذا ومن شبه المؤكد أن فرضية العمق خاطئة لأنها قائمة على افتراض أن الانسان يحلل الجملة بنفس الطريقة التي تولدت بها في الكومبيوتر الذي استعمله.

وكما ذكر تشومسكي في مناقشته لفرضية اينغف فإن التراكيب ذاتية التضمين المبنية على الشكل (3) هي التي تسبب أكبر قدر من الصعوبة سواء في النطق أو في السماع. أما تفسير هذا في رأي تشومسكي فلا يرجع إلى وجود حدود صارمة في الذاكرة قصيرة الأجل فحسب لأن الجمل التي تشتمل على التضمين يصعب تحليلها أكثر من التراكيب الأخرى التي نشتقها بوضع العنصر المضمّن في المنتصف بدلاً من اليمين أو اليسار بالنسبة لمجموعة ما.

ويتضح من هذه المناقشة لفرضية العمق ولفرضية تشومسكي حول التضمين الذاتي أن البحث في الخصائص الشكلية للنحو التحويلي يمكنها أن تتخذ مضامين ذات دلالة من أجل دراسة الآليات النفسية الكامنة وراء الممارسة اللغوية.

إن الطريقة التي عالج بها تشومسكي العلاقة بين الجمل المبنية للمجهول ونظيراتها المبنية للمعلوم والجمل المثبتة ونظيراتها المنفية وكذلك بين الاستفهامية والاخبارية، كانت ترتكز إلى مجموعة من

«القواعد التحويلية الاختيارية». وتبعاً لهذا التحليل فإنَّ الجمل النواة كانت من ناحية عدد القواعد المطبقة أكثر بساطة من غيرها. وكان من المغري أن نفترض أن الجمل النواة ليست أبسط من الوجهة اللغوية فحسب، ولكنها أكثر بساطة أيضاً من الناحية النفسية. وإذا افترضنا وجود علاقة وثيقة بين المقدرة والممارسة لاستطعنا أن نجري بعض التجارب التي ترمي إلى اختبار مدى صلاحية العمليات التحويلية.

ولقد كانت نتائج بعض التجارب الأولية مشجعة جداً حيث تبيّن أن الجمل المبنية للمعلوم أسهل للذاكرة من تلك المبنية للمجهول وأن الجمل المثبتة أسهل من المنفية. والأغرب من هذا أنه تبيّن بنتيجة إحدى التجارب التي اعتمدت على الزمن اللازم للاستجابة لأنواع الجمل المختلفة أن زمن الكمون (Latency) في حال الجمل المبنية للمجهول ليس أطول منه في الجمل المبنية للمعلوم فحسب، بل إن الفارق في الكمون بين الجمل المثبتة المبنية للمعلوم وبين نظيراتها المنفية والمبنية للمجهول يساوي مجموع الفروق بين الجمل المثبتة المبنية للمعلوم وبين المثبتة المبنية للمجهول من جهة والفروق بين الجمل المثبتة المبنية للمعلوم والجمل المنفية المبنية للمعلوم من جهة أخرى.

ويمكننا أن نعتبر هذه النتيجة بمثابة برهان على الفرضية التي تقول إن تحليل الجمل ينطوي على سلسلة من عمليات التحويل التي يستغرق كل منها زمناً معيناً. إلاّ أن هذه التجارب أفرغت من محتواها لأنها لم تأخذ بحسبانها عدداً من الاعتبارات التي لها علاقة بالموضوع. إذ ينبغي على أية تجربة تُصمم بهدف اختبار صلاحية أنموذج معين من النحو من الوجهة النفسية أن تأخذ في اعتبارها جميع المتغيرات الممكنة في الممارسة اللغوية. ولقد أصبح علماء النفس في السنين القلائل الأخيرة ممن استمدوا أبحاثهم من النحو التحويلي أكثر إحساساً بهذه المشكلة من ذي قبل.

2.7 ــ المضامين الفلسفية

يعرض المؤلف هنا لفلسفة اللغة والفكر عند تشومسكي ويعقد مقارنة بين موقف التجريبيين وموقف العقلانيين من اللغة. فالتجريبيون يؤمنون بأن المعرفة تتولد عن التجربة والخبرة كما هو الأمر عند التجريبيين البريطانيين لوك (Locke) وباركلي (Barkley) وهيوم (Hulme). والواقع لقد أثر المذهب التجريبي في تطور علم النفس الحديث تأثيراً بالغاً وكان مع المادية الحسية والحتمية وراء الفكرة التي حملها الكثير من علماء النفس وهي أن البيئة هي التي تحدد المعرفة الانسانية والسلوك الانساني نظراً لعدم وجود فوارق في هذا المجال بين الانسان والحيوانات الأخرى.

غير أن تشومسكي يعتقد أننا نمتلك عدداً من القدرات المعينة (نطلق عليها اسم العقل) وهي تلعب دوراً حساساً في اكتسابنا للمعرفة وتجعلنا قادرين على التصرف ككائنات حرة غير موجهة بحوافز خارجية في البيئة المحيطة بنا رغم احتمال تأثرنا بها.

لقد كانت مدرسة بلومفيلد اللغوية تجاهر بإهمال القضايا النظرية العامة إلى حد المفاخرة تقريباً. ولو سئل معظم اللغويين الأمريكيين قبل نحو خمس عشرة سنة (من تاريخ تأليف الكتاب) عن هدف اللسانيات الأساسي لأجابوا «إنه وصف اللغات». فأتباع بلومفيلد كانوا متشككين من أن جميع اللغات تشترك بخصائص معينة فيما بينها.

أما موقف تشومسكي فإنه متعارض تماماً مع موقف بلومفيلد. فهو يعتقد أن هدف اللسانيات الرئيسي هو التوصل إلى نظرية استنتاجية لبنية اللغة الانسانية بحيث تكون شاملة إلى الحد الذي يمكن معه تطبيقها على جميع اللغات. وهو يعتقد أيضاً بوجود

وحدات صوتية ونحوية ودلالية ذات صفة عالمية (سمات صوتية مميزة ــ مقولات نحوية ــ مكونات دلالية..الخ).

فهذه الوحدات الصوتية والنحوية والدلالية تؤلف ما يدعوه تشومسكي (بالعالميات الحقيقية أو الجوهرية) في النظرية اللغوية. إلاّ أن أكثر ما يميز فكر تشومسكي وأكبر ناحية إبداعية لديه هو تأكيده على ما يدعى بالعالميات الشكلية. وهي المبادىء العامة التي تحدد شكل القواعد وطريقة عملها نحو اللغات المختلفة.

فالنظرية اللغوية يجب أن تكون على درجة من الشمول بحيث تغطي جميع اللغات، وفي الوقت نفسه يجب ألاّ تكون مغرقة في شموليتها كي لا تنطبق على وسائل أخرى من وسائل التخاطب.

ويستعرض المؤلف بعد ذلك النتائج الفلسفية لفكرة تشومسكي المتعلقة بالنحو العالمي بما يلي :

(1) إن جميع اللغات الانسانية تتناول الخصائص والأشياء المشتركة في العالم المحسوس والتي يدركها جميع من يتمتعون بقدرات فيزيولوجية ونفسية سليمة.

(2) يطلب من جميع اللغات أن تؤدي وظائف متشابهة (تقرير أشياء معينة، أو طرح أسئلة أو إعطاء أوامر..الخ).

(3) تستخدم جميع اللغات نفس الجهاز التنفسي والفيزيولوجي، ولنا أن نعتبر طريقة علم هذا الجهاز مسؤولة في حد ذاتها عن بعض الخصائص الشكلية للغة.

(4) إن التفسير المعقول الوحيد في ضوء ما نملك حاليا من معرفة هو أن جميع الناس مزودون بملكة لغوية وأن تلك الملكة هي التي تقرر العناصر العالمية. ومما يزيد في دعم النتيجة التي توصل إليها تشومسكي عملية تعلم الطفل للغته الأم. إذ تشير الدلائل كافة إلى أن الطفل لا يولد وهو مجهز لتعلم لغة معينة دون أخرى. وبهذا نستطيع أن نفترض أن جميع الأطفال، بغض النظر عن العرق والأصل، يولدون ولهم نفس القدرة على تعلم اللغات، ولكن كيف يتسنى للطفل تطوير تلك الملكة الابداعية التي تمكنه من تأليف وفهم جمل لم يسمعها من قبل ؟ يعتقد تشومسكي أن الطريقة الوحيدة لاستيعاب تعلم اللغة هي أن نفترض أن الطفل يولد وهو مزود بالمعرفة بمبادىء النحو العالمي، وبما يميز تلك المبادىء من قيود وشروط، كما أن لديه المقدرة على استعمالها في تحليل ما يسمع حوله من الكلام. هذه المبادىء تؤلف جزءاً مما نسميه «العقل» الذي يتمثل إلى حد ما في بنية الدماغ أو أسلوب عمله والذي يمكن أن يقارن بالأفكار الكامنة عند ديكارت والمذهب العقلاني ورجوعاً إلى أفلاطون.

فكثير من الفلاسفة وعلى رأسهم ديكارت أقاموا حاجزاً بين العقل والجسد وادعى هؤلاء أن وظائف الجسم الفيزيولوجية وعملياته، على عكس العقل، تخضع لنفس القوانين الميكانيكية أو الفيزيائية شأنها شأن بقية العالم المادي. غير أن موقف تشومسكي يختلف عن ذلك نوعاً ما. صحيح أنه يتفق مع ديكارت وغيره من الفلاسفة العقلانيين في أن السلوك الانساني لا يخضع ولا حتى جزئياً (للحوافز) الخارجية أو الحالات الفيزيولوجية الداخلية مما يجعل موقفه متعارضاً مع فكرة الآلية الميكانيكية، إلاّ أن تشومسكي يختلف عنهم في أنه لا يشاركهم اعتقادهم بعدم امكانية تقليص الفرق بين العقل والجسد. وهكذا فإن تشومسكي لاينكر إمكانية تفسير الظواهر العقلية من حيث المبدأ في ضوء العمليات الفيزيولوجية والعمليات الفيزيائية التي يفهمها الآن.

8 ـ الخاتمة

يعمد المؤلف هنا وفي خاتمة حديثة عن تشومسكي إلى إعطاء تقييم ذاتي لمدى أهمية أعمال تشومسكي بمجملها :

(1) لقد حمل تشومسكي ما يسمى اللسانيات الرياضية إلى آفاق بعيدة كما فتح ميادين جديدة للبحث الذي هو موضع اهتمام علماء اللغة والمنطق والرياضيات على حد سواء. ولو سلمنا جدلاً بأن ليس ثمة عمل واحد من أعمال تشومسكي في النحو التحويلي ذو علاقة مباشرة بوصف اللغات الطبيعية فإن هذه الأعمال تبقى قيّمة بالنسبة لعلماء المنطق والرياضيات ممن يهتمون ببناء النظم الشكلية في معزل عن تطبيقها التجريبي.

(2) إنّ ما جذب اهتمام الفلاسفة وعلماء النفس إلى أعمال تشومسكي هو بالطبع أنموذج النحو التحويلي الذي صُمّم بهدف تحليل اللغات الطبيعية. وقد بيّن تشومسكي بمنتهى الاقناع أن الفجوة بين اللغة الانسانية وبين نظم التخاطب في عالم الحيوان لا يمكن سدها عن طريق توسيع نظريات التعلم النفسية الحالية التي تقوم على إجراء التجارب على الحيوانات المخبرية. وهذا يتبع طبعاً مبدأ الابداعية الذي يتجلى في استعمال اللغة ولا يعتمد على مدى صلاحية أي أنموذج من نماذج النحو التحويلي ولا حتى إمكانية صياغة مثل ذلك الأنموذج. ولكن على الرغم من أن تشومسكي أعطى مبررات جيدة تثبت أن أنموذج الحافز والاستجابة عاجز عن معالجة جميع الحقائق المتعلقة بسلوك اللغة إلا أنه لم يبيّن أن هذا الأنموذج لا يستطيع تفسير أي منها. وربما يتعلم الطفل بعض الكلمات التي تدل على أشياء موجودة في بيئته أو أنماطاً معينة من الكلام كتلك التي تتكرر دوماً خاصة في مراحل حياته الأولى بطريقة يمكن وصفها بشكل معقول في ضوء المذهب السلوكي.

(3) يعتقد المؤلف أن الحكم الوحيد الذي يمكن أن نصدره وفق الأدلة المتوفرة هو أن نظرية تشومسكي المؤيدة للمذهب العقلاني ليست بالقوة التي يدعيها. ذلك لأنها كما أشار نقاد تشومسكي لا تخضع للاثباتات التجريبية المباشرة. لأنه من غير العملي أن نربي طفلاً منذ ولادته دون أية معرفة بأية لغة طبيعية وأن نعرضه فقط إلى عبارات من الكلام في لغة مصطنعة تستعمل في مجال كامل من الحالات العادية كما أنه ليس من الواضح أبداً كيف يتصرف المرء إزاء تصميم تجربة نفسية مقبولة ليس لها علاقة مباشرة بالموضوعات المطروحة.

(4) لو سلمنا جدلاً بأن المبادىء الشكلية التي يعتمد عليها تشومسكي هي عالمية بمعنى أنها موجودة فعلاً في جميع اللغات التي ينطق بها البشر فهل نملك ما يبرر اعتقادنا بأنها تلائم العقل البشري إلى الحد الذي يجب أن تتفق معها أية لغة إنسانية يمكن تصورها. وربما أننا عاجزون حتى الآن عن إثبات أن اللغات التي تخالف هذه المبادىء تستعصي على الانسان سواء في تعلمها أو استخدامها فإن لنا الحق في حجب موافقتنا على فرضية تشومسكي بأن العالميات الشكلية كامنة في الانسان.

وربما كان التفسير البديل لصفتها العالمية أن جميع اللغات انحدرت من أصل مشترك في الماضي السحيق وحافظت على مبادئها الشكلية إلا أنه من غير الثابت أن جميع اللغات مشتقة من أصل واحد.

(5) أما فيما يتعلق باللسانيات كعلم تجريبي يهدف إلى تقديم نظرية حول بنية اللغة الانسانية فإن من المهم بالطبع أن يدخل اللغويون في نظريتهم جميع العالميات الحقيقية والشكلية التي يمكن الاهتداء إليها من خلال البحوث في لغات معينة، وأعتقد أن تشومسكي كان على صواب حين قال إن تنوع البنى الموجودة في لغات العالم أقل شأناً مما يدعيه البنيويون.

حيث أظهرت البحوث النحوية التي أجريت في السنوات القلائل الماضية والتي تأثر معظمها بأعمال تشومسكي تأييداً لا بأس به لدعاة النحو العالمي، ولكن يجب أن ينظر إلى النتائج التي تم الحصول عليها حتى الآن على أنها نتائج أولية فحسب.

(6) وتشير الدراسات الحالية التي تقارن بين السلوك الانساني والحيواني إلى أن ما يعتبر في العادة سلوكاً غريزياً يتطلب شروطاً بيئية خاصة جدّاً خلال فترة النضج (maturation). أما إذا قيل أن مثل هذا السلوك كامن أو أنه اكتسب بالخبرة فإن المسألة عندئذ لا تعدو كونها مسألة توكيد. فالغريزة والبيئة إذن كلاهما ضروري وتكمل إحداهما الأخرى. ورغم أن تشومسكي يطلق على نفسه لقب عقلاني فإنه لا يريد أن يلزم نفسه بالمعارضة التقليدية بين العقل والجسم. ويبدو أن موقفه يتفق مع الرأي القائل إن المعرفة والاتجاه (الميول الطبيعية) يتطلبان شروطاً بيئية محددة خلال فترة النضج رغم أنهما كامنان في الأصل.

(7) إن حكمنا على نظرية تشومسكي العقلانية والقوية بأنها غير مثبتة لا ينفي أهميتها مطلقاً، حيث بيّن أن ليس ثمة ما يجانب العلم في الافتراض أن القدرة على التحدث بلغة ما تدل على وجود عدد من القواعد التوليدية ــ سواء أكانت كامنة أم مكتسبة ــ في ذهن المتكلم وإن تلك القواعد هي من نوع محدد جداً وأن المتكلم قادر على «خزن» وإجراء العمليات على التراكيب الذهنية المجردة خلال تأليف الجمل أو تحليلها.

(8) يورد المؤلف نقطتين مهمتين تتعلقان بنظرية تشومسكي :

الأولى وتتعلق بالتمييز الذي يضعه تشومسكي بين القدرة (Competence) والممارسة (Performance)، فعلى الرغم من أن هذا التمييز دون شك ضرورة نظرية ومنهجية في اللسانيات إلاّ أنه من غير الثابت ما إذا كان تشومسكي يضع الحد الفاصل بينهما في مكانه الصحيح. ويمكن أن نقول إن تشومسكي يصف عدداً من الظواهر على أنها متعلقة بالممارسة (وبذلك فهي خارجة عن الموضوع) مع أنه من الواجب مناقشتها في ضوء المقدرة.

أما النقطة الثانية بشأن مسألة التفاصيل فإن حكم أي لغوي على الطريقة الأكثر طبيعية أو الأكثر وضوحاً في وصفه لمادته إنما هو أمر نسبي وغير محدد، ولابد لنا من أن نضيف أنه من غير الواضح دائماً متى تكون الفوارق بين نوعين من الوصف لمادة واحدة فوارق أساسية ومتى تكون مجرد فوارق في الرموز والمصطلحات. ولقد قال تشومسكي ذاته في معرض حديثه عن الأعمال الحالية في النحو التوليدي : «إن الحقل في الوقت الحالي في وضع غير مستقر ولابد من مرور بعض الوقت قبل أن ينقشع الغبار ويتم حل عدد من القضايا البارزة ولو مؤقتاً».

(9) لقد ادعى تشومسكي في كتاباته الأخرى الأكثر تكنيكية والتي نشرت مؤخراً أن الفوارق بين موقفه وموقف العديد من اللغويين الآخرين في كثير من هذه القضايا إنما هي فوارق في التسميات ليس إلاّ. لكن الكثيرين لا يتفقون معه في هذا الرأي. إن النقطة المهمة التي يريد المؤلف أن ينوه بها هي أنه حتى اللغويين الذين غالباً ما يتعاطفون مع آراء تشومسكي ربما يختلفون معه حول قضايا عديدة.

(10) وأخيراً حتى إذا كان من واجبنا أن نتخيل على الأقل احتمال رفض نظرية النحو التوليدي التي طلع بها تشومسكي بإجماع اللغويين يوماً ما ــ باعتبارها خارجة عن إطار وصف اللغات الطبيعية ــ وحتى لو فشلت المحاولة التي بذلها كي يصوغ المفاهيم المستخدمة في تحليل اللغات فإن المحاولة نفسها ستوسع إدراكنا لهذه المفاهيم دون حدود وإن الثورة التشومسكية في هذا المجال لا يمكن إلاّ أن تنجح.

9 ــ نقد الكتاب وتحليله

لاشك أن نقل المعارف الحديثة من ثقافة إلى ثقافة أخرى يُعدّ مكوناً رئيسياً من مكونات الحضارة البشرية عبر التاريخ... وتزداد أهمية هذا النقل الحضاري في حالة كون هذه المعارف حديثة ومفيدة جداً في أمة من الأمم ومفقودة تماماً في أمة أخرى.

وتأتي الأهمية الزائدة لهذه المعارف من كونها عنصراً أساسياً لتطوير ثقافة من الثقافات وإغنائها بحيث تصبح عاملاً فاعلاً في بناء الحضارة الانسانية الحديثة.

والحقيقة إن كتاب تشومسكي هو واحد من الكتب التي تنقل مثل هذه المعارف اللغوية والفلسفية والرياضية الحديثة جداً من اللغة الانكليزية إلى اللغة العربية. وبذلك فإن المكتبة العربية تضم إلى معارفها معرفة لغوية حديثة جاءت تملأ فراغاً ظل يعاني سنوات عديدة.

ولكن ما هي طبيعة كتاب **تشومسكي** ؟ وكيف تم نقله إلى اللغة العربية ؟ ثم ماهي مواضع القوة في هذا النقل وماهي مواضع الضعف فيه ؟ وبعبارة دقيقة ؛ أين يقع هذا الكتاب المترجم في قائمة الكتب المنقولة إلى العربية ؟

سأحاول الاجابة عن هذه الأسئلة ضمن إطار عرض الجوانب الايجابية والسلبية التي طبعت الكتاب.

9 1 ــ الجوانب الايجابية

(1) إن أول ما يلفت نظر الباحث المختص باللسانيات أو حتى القارىء العربي غير المختص أن هذا الكتاب هو الأول من نوعه في الوطن العربي ذلك لأنه يعطي فكرة كافية وشافية عن نظرية تشومسكي اللسانية منذ بواكيرها الأولى (1957) وحتى بداية السبعينات من هذا القرن.

والأهم من هذا هو كفاءة المترجم الباحث الدكتور محمود زياد كبة الذي استطاع تطويع المادة اللسانية التشومسكية المعقدة ووضعها في اللغة العربية على نحو واضح وبسيط.

وعلى الرغم من أنني لا أعرف الرجل (شخصياً) إلا أنني متأكد تماماً من أنه لا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة الصعبة ما لم يكن مختصاً بهذا الضرب من العلم. وقد كنت قد أكدت على قضية التخصص في نقل العلوم والمعارف في مقالات وندوات وكتب لا مجال لذكرها الآن(1). والواقع عندما سألت عن الهوية العلمية للرجل تبيّن لي أنه متخصص باللسانيات الحديثة (ولا سيما علم النحو والدلالة) من بريطانيا وهو أستاذ اللسانيات الحديثة بقسم اللغة الانكليزية بجامعة حلب **(وهو معار الآن في جامعة الرياض ــ السعودية)**.

إن هذه المعلومات التي ذكرتها مهمة جداً في هذا المجال وهي تؤكد الفكرة التي آمنت بها والتي كنت قد ذكرتها في كثير من الكتابات وهي أنه إذا أردنا نقل معرفة متخصصة من لغة إلى لغة أخرى فلا بدّ أن يقوم بهذه المهمة باحث متخصص بتلك المعرفة وذلك انطلاقاً من التقنيات الحديثة الموضوعة في علم الترجمة. ذلك لأن الترجمة ليست عملية نقل للرموز والمصطلحات المعجمية من لغة إلى لغة أخرى وإنما هي نقل الفكر الحي المتألق بعد فهمه واستيعابه من ثقافة إلى ثقافة أخرى آخذاً بالاعتبار كل المكونات التي تكوّن هاتين الثقافتين وتجعلهما مفهومتين لدى الآخرين.

والحق يقال لقد استطاع المترجم الباحث أن

(1) لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع راجع : الوعر، مازن (1988ــ الفصل الخامس). قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث ــ مدخل. دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ــ سورية ــ دمشق.

يحقق هذا المعيار عندما نقل هذا الكتاب إلى الثقافة العربية. ولا ينتابني شك أبداً أنه على الرغم من صعوبة نظرية تشومسكي وتعقّدها (وذلك لتداخلها بالعلوم الرياضية والفيزيائية والبيولوجية) فإن المثقف العربي غير المختص باللسانيات لن يواجه أية صعوبة عندما يقرأ هذا الكتاب باللغة العربية. بل إنه سيتجاوز مرحلة القراءة المفهومة إلى مرحلة الحافز والارهاص الجدي الذي يدفعه للاطلاع على التراث اللساني الذي خلفه تشومسكي ذلك العالم الذي يُعدّ واحداً من عباقرة القرن العشرين.

(2) وهذه النقطة تقودنا إلى نقطة ثانية حول ترجمة هذا الكتاب وهي أن المترجم اتبع ثلاث خطوات دقيقة في تغيير بعض ما جاء في متن الكتاب :

ا ــ فقد استبدل بالأمثلة الانكليزية التي أتى بها المؤلف جان ليونز أمثلة عربية ملائمة، وبذلك حقق المترجم أمرين مهمين جداً :

الأول هو أنه انتقل من عرض النظرية التشومسكية إلى تطبيقاتها العملية على نحو غير مباشر على اللغة العربية.

الثاني أنه استطاع أن يوصل فكر تشومسكي إلى القرّاء العرب دون عناء وجهد بالغين ذلك لأنهم الآن أمام أمثلة تطبيقية باللغة العربية.

ب ــ وقد استبدل المترجم أيضاً القواعد التوليدية والتحويلية في نظرية تشومسكي والتي وضعها المؤلف جان ليونز بالانكليزية... استبدل بها قواعد عربية أكثر ملاءمة وفهماً للمثقف العربي من تلك الموضوعة بالانكليزية. (على الرغم من أن لنا ملاحظاتنا الدقيقة حول هذه القواعد العربية التي سوف أنقدها عند حديثي عن الجوانب السلبية للكتاب). وبذلك فإن القواعد اللغوية الموضوعة أصلاً لوصف اللغات البشرية كما يدعي تشومسكي، تُنقل الآن إلى اللغة العربية بحيث يستطيع القارىء العربي أن يتعرف عليها وعلى طبيعتها المرتكزة على مفاهيم مستمدة من الرياضيات (كمفهوم النظم الشكلية، ومفهوم المتواليات ومفهوم نظرية المجموعات..الخ).

ج ــ وأخيراً فقد وضع المترجم في نهاية الكتاب معجماً لسانياً صغيرا وبسيطاً باللغتين الانكليزية والعربية. وهذا العمل يذلل بالطبع الكثير من المسائل والمصطلحات اللسانية الصعبة غير المفهومة للقارىء العربي. وتزداد قيمة مثل هذا العمل عندما نعلم أن قضية المعجم اللساني العربي ما زالت تعاني من مشكلات كثيرة جداً، إذ ليس هناك معجم لساني عربي ــ انكليزي واحد يمكن أن يكون شافياً وكافياً ومعيارياً (موحداً)(*) في العالم العربي. ويزداد عجبنا عندما نعلم أن قضية المصطلحات والمعاجم أصبحت علماً قائماً برأسه في أوربا وأمريكا تخصص له أقسام قائمة برأسها. أضف إلى ذلك أن هناك آلاف المعاجم اللسانية الغربية التي تحاول شرح المصطلح اللساني شرحاً وافياً وواضحاً(2).

(3) هذه النقطة تتعلق بمتن الكتاب نفسه إذ أن المؤلف جان ليونز وضّح العلاقات القائمة بين

(*) تجدر الاشارة هنا إلى أن مكتب تنسيق التعريب أعد معجما موحدا في اللسانيات (انكليزي ــ فرنسي ــ عربي) سيطرح قريبا للتداول.

(2) لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع راجع (بالانكليزية) : القاسمي، د. علي (1983) **اللسانيات والمعاجم الثنائية اللغة** بريل، ليدن.
وراجع أيضاً (بالعربية) :
القاسمي، د. علي (1980) «المصطلحية (علم المصطلحات)» مجلة **اللسان العربي**. الصادرة عن مكتب تنسيق التعريب بالرباط ــ المغرب. العدد18، الجزء الأول، (ص7).
وراجع أيضاً (بالعربية) **صناعة المعجم العربي لغير الناطقين بالعربية**. أبحاث الندورة التدريبية الرباط من 31 آذار إلى 8 نيسان 1981 مكتب تنسيق التعريب. المغرب.

اللسانيات والفلسفة وعلم النفس من جهة وبين اللسانيات والرياضيات من جهة أخرى.

والواقع إن هذه النقطة التي شرحها المؤلف في إطار نظرية تشومسكي لجديرة بالدراسة :

ا ـ فاللسانيات في بداياتها حاولت أن تبتعد عن الفلسفة لتكوّن علماً قائماً برأسه ذلك لأن الدراسات اللغوية القديمة ارتبطت بالفلسفة وعلم النفس ارتباطاً وثيقاً منذ القديم. وقد ساهمت الفلسفة وعلم النفس في تكوين المواقف التي تبناها العلماء في دراسة اللغة. هذه المواقف بدأت تتحول وذلك منذ أن طالب اللسانيون باستقلال موضوع الدراسة اللغوية وتبني نظرة جديدة موضوعية من اللغة دون التزام مسبق بالنظريات الفلسفية والنفسية.

والواقع عندما يطالب تشومسكي بدراسة اللغة في إطار اللسانيات والفلسفة وعلم النفس فإنه لا يدعو إلى العودة إلى التفكير القديم حول هذا الاتجاه وإنما يعني أن الكثير من المفاهيم الفلسفية والنفسية الادراكية الموجودة في الدماغ البشري تستطيع أن تحلّ لنا إشكالات كثيرة متعلقة بالدراسة اللغوية.

وكما هو معلوم عن تشومسكي فإن هناك تداخلاً كبيراً بين العلوم الطبيعية والانسانية ولا يمكن للباحث فصل هذه المعارف بعضها عن بعض في حقل التكوين الحضاري. والواقع إن المؤلف وضّح لنا الكثير من التجارب الفلسفية والنفسية النظرية منها والتطبيقية والتي أضفت على البحث اللغوي إضاءات جديدة واكتشافات لم تكن من قبل.

ب ـ أما عن العلاقة القائمة بين اللسانيات وبين الرياضيات فإنه يمكن القول بأن السمة الواضحة التي تطبع الدراسات اللغوية الحديثة هي ارتباطها بالعلوم الدقيقة كالرياضيات والفيزياء والبيولوجيا والحاسبات الالكترونية (الكومبيوتر).

فقد وضّح المؤلف جان ليونز كيف استطاع تشومسكي أن يستفيد من حقل الرياضيات ولا سيما بعض النظريات المتفرعة عنه كنظرية المجموعات ونظرية المتواليات ونظرية النظم الشكلية وذلك من أجل صياغة النظرية التوليدية والتحويلية. ولا نبالغ إذا قلنا بأن هناك حقلاً كبيراً ومتطورا قد تفرع عن هذه العلاقات القائمة بين النظم اللغوية والنظم الرياضية يدعى «علم اللسانيات الرياضي»[(3)] وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن تشومسكي يحاول أن يستخدم المقاييس والمعايير المستخدمة في دراسة العلوم الطبيعية الدقيقة لكي يؤسس فرضيات ومناهج ونظريات لسانية تجريدية من أجل معرفة بنية اللغة الانسانية ووظيفتها في الدماغ البشري.

(4) الميزة الرابعة التي تسم متن الكتاب أن المؤلف لا يعرض وجهة نظر تشومسكي اللسانية وحدها فحسب وإنما يعرض للنظريات اللسانية الأخرى التي عارضت نظرية تشومسكي وحاولت تفنيدها ولا سيما النظريات الدلالية والفلسفية والنفسية. وهذا أمر مهم جداً، فبدونه لا يمكن تطوير المناهج والنظريات في حقل المعارف البشرية. لقد حاول المؤلف أن يعرض جميع وجهات النظر في هذه الحقول المعرفية في إطار من الموضوعية والوضوح حتى يتمكن القارىء من معرفة نقاط القوة والضعف في نظرية تشومسكي من جهة، ونظريات معارضيه من جهة أخرى، وبذلك يتيح له فرصة التفكير من أجل الارهاص الجدي لتنظير أفضل في حقل المعرفة الانسانية. ولكن هذه الصفات الايجابية التي اتسم بها

(3) لمزيد من التفصيل راجع على سبيل المثال لا الحصر :

(a) Wall, R. (1972). **Introduction to Mathematical Linguistics.** Prentice - Hall, INC. New Jersey.

(b) Partee, B.(1978). **Fundamentals of Mathematics for Linguistics.** Grey Lock publishers, Connecticut.

كتاب تشومسكي لا تجعله يخرج عن نطاق النقد، بل إن المؤلف نفسه كان قد أشار إلى هذه النقطة وأكدها من خلال عرضه للكتاب الذي لم يبلغ حد الكمال على حد تعبيره.

2.9 ـــ الجوانب السلبية

سوف أتناول هنا السلبيات التي اتسم بها متن الكتاب وأسلوبية ترجمته وذلك من أجل أن يدرك القارىء العربي أنه على الرغم من أهمية الموضوع المطروح وبساطته وانفراده في هذا الحقل الذي يوحي له بأن كل ما جاء في هذا الكتاب إنما هو مقبول... فإن هناك أموراً ينبغي توضيحها وشرحها :

(1) النقطة الأولى في هذا المجال أنه ينبغي ألاّ يغيب عن أذهاننا أن هذا الكتاب كان قد ألفه الباحث اللساني البريطاني جان ليونز عام 1972. وهذا يعني أن الفترة الزمنية الواقعة منذ زمن تأليف هذا الكتاب وحتى الآن (1988) تبلغ ستة عشر عاماً. وينبغي ألاّ ننسى في الوقت نفسه أن نظرية القواعد التوليدية والتحويلية حققت خلال هذه الفترة تطورات مدهشة وسريعة نحو الأفضل، بل إن هناك مناهج كثيرة كان تشومسكي نفسه قد رفضها من أساسها أو أنه عدّل في بعضها بعض التعديل. وحجته على ذلك أنه حتى في العلوم الطبيعية الحديثة والدقيقة لا يمكننا دراسة ظاهرة فيزيائية معينة على نحو دقيق وشامل إلاّ من خلال التطوير والتعديل المستمر للفرضيات والمناهج المطروحة وذلك من أجل إيجاد نظرية شاملة ودقيقة وأكثر موضوعية من سابقاتها. والواقع إن المناهج التي عرضها المؤلف في هذا الكتاب هي التي كان تشومسكي قد وضعها منذ عام 1957 حتى تاريخ تأليف هذا الكتاب (1972) وهي التالية :

(1) منهج نحو المواقع المحدودة.

(2) منهج نحو العبارات.

(3) منهج النحو التحويلي.

(4) منهج نحو العناصر.

وكما قلت آنفاً فإن نظرية تشومسكي قد مرت بعد هذه المناهج في مراحل عديدة استطاعت أن تطور من نظريته وتجعلها أكثر علمية وقبولاً في اللسانيات الحديثة. ومن هذه المناهج :

(1) المنهج المعياري المعدل (الموسع).

(2) منهج الضوابط اللغوية.

(3) منهج العامل والربط الاحالي.

(4) منهج المعرفة اللغوية : أصولها، طبيعتها، استعمالها.

والواقع إن هذه التطورات الكثيرة في نظرية تشومسكي التوليدية والتحويلية إنما كانت نتيجة طبيعية للدراسات النقدية التي تناولت أعمال تشومسكي السابقة والتي بدورها دفعت تشومسكي لأن يوحّد جميع هذه المناهج ضمن إطار نظرية لسانية تجريدية أكثر دقة وشمولاً لوصف الظاهرة اللغوية البشرية وشرحها في الدماغ البشري. وربما يكون من المفيد جداً في هذا المجال أن يعيد الباحث البريطاني جان ليونز كتابة الكتاب نفسه ليكون أكثر انصافاً وعدلاً في الحكم على فكر تشومسكي المتأنق.

(2) النقطة السلبية الثانية تتعلق بتقنية الترجمة إذ أن المترجم الدكتور محمد زياد كبة لم يتبع خطة تنسيقية موحدة في ترجمة المصطلحات اللسانية، تلك الخطة التي أكدها في مقدمة الترجمة عندما قال (ص 5) :

«ولسوء الحظ فإن المعجم العربي لا يزال يفتقر إلى الترجمة الدقيقة لكثير من المصطلحات اللغوية الحديثة، هذا على الرغم من وجود محاولات

عديدة قام بها أساتذة مختصون لتعريب تلك المصطلحات، إلاّ أن جهودهم لم تحقق الغاية المطلوبة لأنها كانت جهوداً متفرقة يعوزها التنسيق والتوحيد، ولا يزال لكل اجتهاده في هذا المضمار».

ولا أبالغ إذا قلت بأن هذا الذي كان قد دعى إليه المترجم لم يحققه على نحو تام في كتابه المترجم ذلك لأننا نجد أن للمصطلح اللساني الانكليزي أكثر من مصطلح في اللغة العربية. فالمصطلح الانكليزي (Linguistics) كان يُترجم إما (لسانيات) وإما (علم اللغة). ويمكن أن نستدل على هذا من خلال النصوص المترجمة التالية :

«اتخذ **علم اللغة** خلال السنوات الماضية طابعاً خاصاً....» (ص 5). «ولم تكن شهرة تشومسكي ومكانته بين **علماء اللغة** هي التي جعلت منه واحداً من أعلام الفكر الحديث، **فاللسانيات** ليست سوى موضوع مغلق لايكاد يعرفه سوى صفوة من الناس...» (ص 8). وكذلك الشأن في المصطلح الانكليزي (Syntactic) الذي كان يُترجم إما (نحوي) وإما (لغوي) كما هو الأمر في (ص 33) و(ص 65). وهناك مصطلحات كثيرة لم تترجم وفق مصطلحات عربية معيارية موحدة... ويعود هنا (ربما) إلى ما كان قد ذكره المترجم نفسه من أن جهود الباحثين العرب العاملين في هذا الحقل لم تحقق الغاية المطلوبة لأنها جهود متفرقة يعوزها التنسيق والتوحيد.

(3) النقطة السلبية الثالثة حول الكتاب تتعلق أيضاً بالترجمة، إذ أن المترجم لم يحاول أن يضع المفاهيم اللسانية الغربية بمصطلحات عربية أصيلة مستمدة من التراث اللغوي العربي ذلك لأن هذه المصطلحات العربية القديمة تعني المفهوم نفسه الذي عناه المصطلح اللساني العربي.

فالمترجم مثلاً كان يترجم المفهوم اللساني المعبر عنه ب (optional Rules) بمصطلح عربي معاصر يعبر عنه ب (قواعد اختيارية)، وكذلك الشأن في المفهوم (obligatory Rules) الذي ترجمه إلى (قواعد اجبارية) (ص66). ولو أن المترجم استمد مصطلحاته من التراث اللغوي العربي لكانت ترجمته أدق تعبيراً ذلك لأن ترجمة هذين المفهومين الغربيين يمكن أن تكون للأول (القواعد الجوازية) وللثاني (القواعد الوجوبية) ذانك المفهومان اللذان يعنيان ما عناه تشومسكي بالضبط. زد على ذلك أن المترجم لم يترجم القواعد اللسانية الانكليزية بقواعد عربية أصيلة مستمدة من التراث اللغوي العربي. فهو مثلاً يترجم ال (NP) ب (ت / إس) أي تركيب اسمي، وال (VP) ب (تر / فع) أي تركيب فعلي، وال (N) ب (إس) أي إسم، وال(S) ب (ج) أي جملة.

والواقع إن مثل هذه الترجمات هي ترجمات عصرية لا تؤدي الغرض الذي تهدف إليه، ذلك أننا إذا أردنا نقل المفاهيم اللسانية الغربية التقنية فإنه لا مندوحة عن أن نعود إلى المصطلحات العربية التي يمكنها أن تعني نفس المفهوم اللساني الغربي وبذلك نكون قد حققنا هدفين في آن واحد الأول أننا لم ننقطع عن التراث بل حاولنا استثماره عصرياً. والثاني أننا نقلنا المفاهيم اللسانية الغربية على نحو واضح وسليم ومفهوم.

والحقيقة هناك نماذج عربية لسانية عصرية حاولت أن تستمد مكوناتها من النظرية اللسانية العربية القديمة وأن تستفيد في الوقت نفسه من التقنيات الحديثة للنظريات اللسانية الغربية. من هذه النماذج مثلا النموذج اللساني العربي الواقعي والحديث

والذي وضعه صاحب هذه السطور[4].

وهكذا فإن جملة مثل (الرجل رمى الكرة) يمكن وضعها في إطار من المصطلحات والمقولات العربية الأصيلة ثم في إطار من التقنية اللسانية الغربية :

(1) إس ← م إ — م

(2) م إ$_1$ ← إسم$_1$

(3) م$_1$ ← إس

(4) إس ← م — م إ — ف

(5) م$_2$ ← فعل

(6) م إ$_2$ ← ضمير

(7) ف ← إسم$_2$

(8) إسم ← تع — إ

(9) تع ← ال

(10) إ ← رجل، كرة

(11) فعل ← رمى

(12) ضمير ← (هو)

إس = إسناد، م إ = مسند إليه، م = مسند، ف = فضلة، تع = تعريف، إ = إسم.

صحيح أن المترجم وُفِّق في اختيار الأمثلة العربية التي تماثل تماماً الأمثلة الانكليزية، إلاّ أن وضعها في إطار من القواعد كان وضعاً عصرياً هشاً. ويعود السبب في هذا (وأظن ذلك) إلى عدم اطلاع المترجم على النماذج اللسانية المعاصرة التي تستمد إحدى مكوناتها النظرية من التراث اللغوي العربي[5].

(5) النقطة الايجابية — السلبية الخامسة في ترجمة هذا الكتاب هي أن المترجم لم يتحقق تماماً من بعض الآراء والنتائج التي توصل إليها مع أنها نتائج مهمة جداً وخطيرة جداً في الوقت نفسه.

فقد كان قد أشار في المقدمة (ص6) إلى أن :

«ما وصل إليه النحو العربي من التطور منذ قرون عديدة تحاول النظرية النحوية الحديثة الرائجة في الغرب حالياً أن تدركه. فالنحاة العرب أدخلوا الفكرة التحويلية التوليدية في صلب قواعد اللغة العربية ولو أنهم لم يطلقوا عليها نفس التسمية. وما قواعد الحذف والاضافة والتقديم والتأخير ومفهوم (التقدير) في الاعراب إلاّ جزء من القواعد التحويلية الموجودة في صميم اللغة العربية. وأغلب الظن — وهذا هو اعتقادي الشخصي — أن تشومسكي أخذ مبادىء نحوه التحويلي عن العربية من خلال اللغة العبرية التي قدم رسالته لنيل درجة الماجستير فيها، ومن المعروف أن للنحو العربي أثراً بالغاً في النحو العبري».

الواقع إن هذا الكلام يحتاج إلى نقاش هنا، ذلك لأن هذه الآراء والنتائج توحي للقارىء العربي بأن نظرية النحو التوليدي والتحويلي إنما هي نسخة عن نظرية النحو العربي وإن تشومسكي لم يفعل في هذا المجال شيئاً اللهم إلاّ بعض الأمور التقنية المستمدة من العلوم الحديثة.

---

(4) لمعرفة هذا النموذج بالتفصيل راجع (بالعربية والانكليزية) :

الوعر، مازن (1987) **نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغة العربية**. دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر سورية — دمشق.

(5) لمعرفة بعض النماذج العربية اللسانية المعاصرة راجع :

ا — صالح، د. عبد الرحمن (1971 — 1972) «مدخل إلى علم اللسان الحديث» **مجلة اللسانيات** الصادرة عن معهد العلوم اللسانية والصوتية التابع لجامعة الجزائر. المجلد الأول (الجزء 1 — 2) والمجلد الثاني (جزء 1).

ب — الفاسي الفهري، د.عبد القادر (1985). **اللسانيات واللغة العربية**. دار توبقال للنشر — الدار البيضاء — المغرب.

إن هذه النتيجة التي توصل إليها الباحث المترجم كما قلت سابقا هي نتيجة محفوفة بالخطر والحذر (سلبية) ذلك لأنها لا تخضع لقانون التطور العلمي للحضارات البشرية. وكأنها تؤيد مقولة «ما ترك الأول للآخر من شيء» ومقولة «ليس بالامكان أبدع مما كان». ولعلي لا أريد التفصيل في هذه النقطة بالذات ذلك لأنني بحثتها في كتابات ومقامات أخرى[6]. ولكن الذي أريد أن أوكده هنا أن ما قاله الفيلسوف اليوناني القديم هيرقليطس من أننا« لا نستطيع أن نستحم بماء النهر مرتين» إنما هو صحيح من الناحية العلمية. ذلك أن لكل ثقافة من الثقافات ناموسها المتطور طبقاً لزمانه ومكانه. وهذا يعني أن ماهية النظرية اللغوية القديمة وموضوعها وغايتها إنما تختلف كلها من حيث المنطلق الفلسفي عن ماهية النظرية اللسانية الحديثة وموضوعها وغايتها.

ولكن هذا لا يعني أبداً أن النظرية اللسانية الحديثة لم تستفد من النظرية اللغوية القديمة (ماهيةً وموضوعاً وغايةً) ذلك لأنه لا يمكن أن تأخذ النظرية اللسانية الحديثة شرعيتها العلمية التي تجعل منها أكثر شمولية ودقة وموضوعية ما لم تستفد من النظرية اللغوية القديمة برمتها. وهذا بالضبط ما أعنيه بالنتيجة المهمة الايجابية التي توصل إليها الباحث المترجم.

وفي رأيي أن الغرب لو التفت تماماً إلى ما قاله العرب القدماء في حقل الدراسات اللغوية لحُلَّت مشكلات لسانية كثيرة تعاني منها النظرية اللسانية الغربية.

وهكذا فإن استفادة تشومسكي من النظرية اللغوية العربية تقع في هذا الاطار. صحيح أن تشومسكي تكلم عن الحذف والاضافة والتقديم والتأخير والتقدير وما إلى هنالك من أمور لغوية كان قد تحدث عنها العرب القدماء (وهذه بالطبع نقطة ايجابية) إلاّ أن كل هذا يقع في إطار استفادة النظرية الحديثة من المعلومات المفيدة المجمّعة في التراث اللغوي العربي والعالمي. ولكن هذا لا يعني أبداً أن النظرية اللسانية الحديثة (كنظرية) تشبه أو تماثل النظرية اللغوية القديمة (كنظرية، إن كان هناك نظرية متماسكة) النظرية اللسانية الحديثة هي نظرية ذات مبادىء وقوانين علمية متماسكة ومنطقية. هذه المبادىء والقوانين العلمية استمدت معاييرها ومقاييسها من العلوم الطبيعية الدقيقة (الرياضيات والفيزياء والبيولوجيا وهندسة الحاسبات الالكترونية). أما النظرية اللغوية القديمة فهي عبارة عن ركام من المعلومات المجمعة والمهمة جداً في حقل المعرفة اللغوية، ولكنها لم تبلغ حدَّ النظرية (بالمفهوم الرياضي والفيزيائي لتعريف النظرية الحديثة)[7].

هذه المعلومات المجمعة ضمت مبادىء وقوانين لم تكن متماسكة من الناحية العلمية، أضف إلى ذلك أنها لم تستمد معاييرها ومقاييسها من العلوم الطبيعية الدقيقة وإنما استمدتها من العلوم الانسانية، (الأدب، النقد، التاريخ، الدين... الخ).

والنتيجة هي أن «النتيجة» التي توصل إليها

(6) لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع راجع :

أ ـ الوعر، مازن (1988 الفصل الخامس والسادس) **قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث ـ مدخل**. دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر سورية.

ب ـ الوعر، مازن (1989 الفصل الأول) **دراسات لسانية تطبيقية**. دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر (قيد الطبع).

ج ـ الحوار الذي أجرته معي جريدة **الثورة** (السورية) العدد 7569 الخميس 14 كانون الثاني1988.

(7) لمعرفة طبيعة بناء النظريات العلمية الحديثة بالمفهوم الرياضي الفيزيائي راجع : Woodger, Joseph (1970).**The Technique of Theory Construction**. The University of Chicago press.

الباحث المترجم يمكن أن تصاغ كالتالي :

لقد استفاد تشومسكي من المعلومات اللغوية العربية القديمة كما اعترف هو بنفسه[8] تلك المعلومات المهمة جداً في حقل المعرفة اللغوية والتي ضمنها في نظريته التوليدية والتحويلية. ولكن تشومسكي في الوقت نفسه وضع نظرية لسانية حديثة (بالمفهوم الرياضي ـــ الفيزيائي) تعتبر في رأيي طفرة في تاريخ الفكر اللغوي العالمي. من هنا تأتي أهمية اللسانيات الحديثة كعلم قائم برأسه استفاد من المعلومات اللغوية القديمة المجمّعة (العربية وغير العربية) المفيدة والموجودة في التراث أيضاً. وبعدها صاغ نظرية حديثة جداً استمدت مكوناتها وأركانها ومقاييسها ومعاييرها من العلوم الرياضية والفيزيائية والهندسية والبيولوجية الدقيقة.

10 ـــ الخلاصة

يُعتبر هذا الكتاب واحداً من الكتب المترجمة والمهمة جداً في حقل المعرفة اللغوية الحديثة. والحق يقال لولا تخصص الباحث المترجم الدكتور محمد زياد كبه بالموضوع الذي يعالجه الكتاب ثم معالجته بعض التخريجات المتعلقة بتقنية الترجمة لما جاء الكتاب واضحاً وسهلاً وبسيطاً يستطيع المثقف العربي غير المتخصص أن يفهمه ويستوعبه، لذلك فإنني أدعو كل الزملاء الباحثين في العلوم اللسانية الحديثة أن ينقلوا مثل هذه الكتب المفيدة إلى اللغة العربية لتكون ترسانة ثقافية وعلمية تقف في خط التوازن الاستراتيجي مع أعداء الأمة العربية، تلك الترسانة التي تسعى لبناء الانسان العربي المعاصر وتسليحه بأنجع التقنيات الحضارية الانسانية الحديثة.

* * *

(8) لمزيد من التفصيل حول هذا الاعتراف راجع : (الفصل الخامس) من كتابنا **دراسات لسانية تطبيقية** دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ـــ سوريا ـــ دمشق (قيد الطبع).